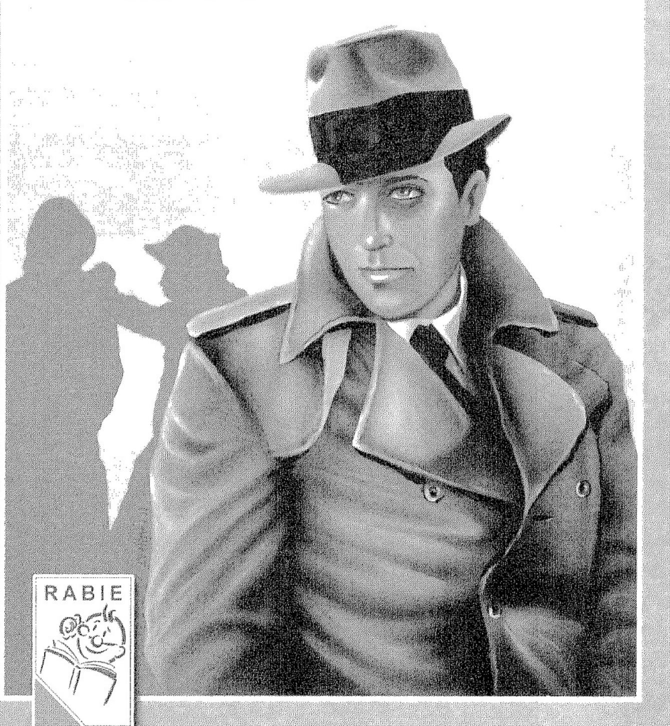
روايات عالمية للناشئة

شرلوك هولمز

كونان دويل



D

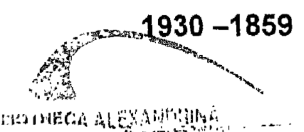
روايات عالمية للناشئة

شرلوك هولمز

شرلوك هولمز

(كونان دويل)

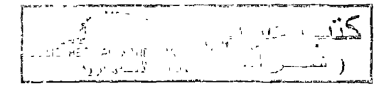
1859– 1930



ترجمة

د. محمد نديم خشفة

ذكرى حاج حسين



إشــراف : محمــد كمــــال

إخراج فني : م. نشوان خريط



مغامرات شرلوك هولمز

جمعية الرجال الحمر الرؤوس



في الخريف الماضي قمت بزيارة مفاجئة لصديقي شرلوك هولمز في شارع بيكر ، فوجدته مشغولاً بمحادثة رجل بدين متقدم في السن ممتلئ الوجه ، ولكن الذي لفت انتباهي شعره الأحمر بلون النار .

وكنت على وشك الانصراف معتذراً حينما أوقفني هولمز بإشارة من يده وقال بلهجة مرحة :

– جئت في وقتك يا واطسون !

– أخشى أن أزعجك .

– لا ، أبداً ..

والتفت إلى البدين قائلاً :

– أُ رّفك على الدكتور واطسون صديقي القديم ، وقد حللت كثيراً من القضايا بمساعدة منه .

فحياني البدين الأحمر الشعر بهزة من رأسه ، وهو ينظر إليّ بعينيه الثاقبتين ، فرددت تحيته وجلست .

قال لي هولمز :

– أتذكر يا واطسون كيف قلت لي ذات يوم إن الحياة ليست أعجب من الروايات ؟ وهذا السيد جابيز ويلسون قد كلفني بقضية ، وأظنه لا يمانع في حكايتها لك مرّة ثانية ، وهي من أعجب القضايا التي سمعتها منذ سنوات عديدة ، ولا أدري ما إذا كنت ألمح وراءها جريمة ما ، وأرجوك يا سيد ويلسون أن تروي علينا تفاصيل الحكاية لكي يسمعها الدكتور واطسون أولاً ، ولأني أفضل سماع التفاصيل عدّة مرات ثانياً ، لعلني أستشفّ من خلالها شيئاً فاتني ، وكم قرأت من القصص الغريبة في الصحف ، ولكن حكايتك هذه منفردة حقاً .

فاعتدل الرجل البدين في جلسته وابتسم بتواضع ، وقد أسعده أن يكون لحكايته أثرها الكبير في المحقق الشهير ،

وجذب من جيب معطفه جريدة قديمة ، وبدأ يبحث فيها عن المقالة . وانتهزت هذه الفرصة لكي أتفحصه مستخدماً طريقة صديقي المحقق في الاستنتاج ، ولم أصل إلى نتيجة تذكر ، لأن له مظهر التاجر الإنكليزي البسيط ، المحدود الذكاء العنيد . فهو يرتدي بنطالاً عريضاً وسترة سوداء وسخة ، وتحتها كنـــزة من الصوف بنيّة اللون ، وعليها سلسلة ثخينة من النحاس ، وقد عُلّق فيها مربعٌ معدني مثقوب كالحلية ، وكان فوق رأسه قبعة طويلة قديمة ، ومعطفه البني قد رُقعت ياقته بقطعة من المخمل ، ولا شيء يلفت الانتباه لدى هذا الرجل البدين سوى شعره الأحمر بلون الدم .

ورمقني شرلوك هولمز بنظرة وهو يهز رأسه جواباً على غمزة عيني المتسائلة ، وقال بهدوء :

– فيما عدا أن السيد ويلسون مارس العمل اليدوي بعض الوقت ، وكان ماسونياً ، وأنه سافر إلى الصين وكتب كثيراً هذه الأيام ، فلا شيء يمكن استنتاجه لديه .

فاعتدل جابيز ويلسون في جلسته ونظر إلى هولمز ذاهلاً وإصبعه تشير إلى المقالة في الجريدة ، وقال :

– كيف عرفت أني مارست العمل اليدوي يا سيد هولمز ؟ صحيح أنني اشتغلت نجاراً في صناعة السفن ، ولا أدري كيف عرفت ذلك !

– إن يدك اليمنى أكبر وأكثر تسطيحاً من يدك اليسرى ، مما يدل على طول ممارستك للعمل اليدوي .

– حسناً .. وكيف عرفت أني ماسوني ؟

– هذا لا يتطلب ذكاء خارقاً ، لأن الدبوس الذي على ربطة عنقك له شكل الكوس والفرجار .

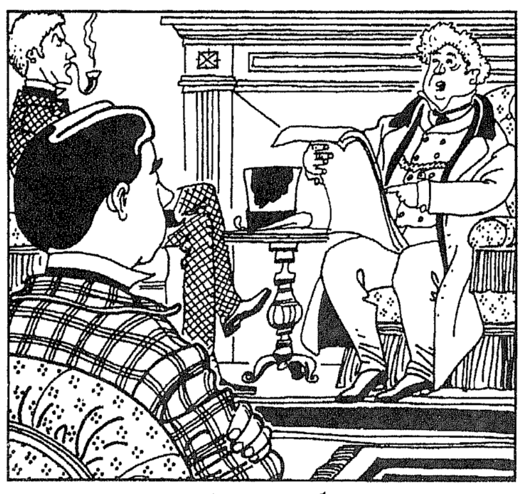
– هذا مفهوم .. وكيف عرفت أني أكتب هذه الأيام ؟

– لأن كُمَّ معطفك الأيمن أكثر لمعاناً من الأيسر لكثرة احتكاكه بالطاولة .

– ولكن .. رحلتي إلى الصين ؟

– أوه .. فوق معصم يدك اليمنى يوجد وشم على شكل سمكة ، وقد تعمقتُ في دراسة الوشم وكتبتُ عنه بحثاً أيضاً ،

وطريقة تلوين حراشف السمكة بالوردي غير ممكنة إلا في الصين ، ولا يجعل في سلسلته قطعة نقد صينية إلا من زار الصين .



ضحك الرجل ضحكة رنانة وقال :

– حسناً .. حسناً ، كنت أظنك تعرف هذا عني سابقاً .. ولكنّه استنتاج بسيط في الواقع .

فالتفت هولمز إليّ وقال :

– لقد أخطأتُ في تعليل استنتاجي يا واطسون وأسأتُ إلى سمعتي بطريقة بريئة .. المهم ، أين هذا الإعلان يا سيد ويلسون ؟

– نعم .. ها هو ذا ، اقرأه بنفسك .

ودفع إليّ الجريدة وهو يشير إلى المقال بإصبعه الغليظة ، فقرأت ما يلي :

" جمعية الرجال الحمر الرؤوس

بعد وفاة السيد إيزشاه من بنسلفانيا (الولايات المتحدة الأمريكية) فقد أوصى بإجراء مسابقة بين الرجال ذوي الشعر الأحمر الذين يتمتعون بكامل قواهم البدنية والعقلية للحصول على وظائف براتب أسبوعي قدره أربعة جنيهات ، ويكون عمرهم أكثر من واحد وعشرين عاماً ، فعلى المترشحين أن يتقدموا يوم السبت الساعة الحادية عشرة إلى السيد دنكان روس في مقر الجمعية ، وعنوانها 7 بوبس كورت ، فليت ستريت " .

فقرأت بدهشة عظيمة وسألت :

– ما معنى ذلك ؟

فسعل هولمز دلالة الرضى ، وتلوى في مقعده كما يفعل حين يكون مهتماً بالموضوع منصرفاً إليه ، وقال :

– أكمل يا سيد ويلسون ! هل لاحظت تاريخ الجريدة يا واطسون ؟

– نعم .. " المورننغ كورنيش " يوم 11 / آب / 1890 أي منذ شهرين .

– حسناً .. إنني أصغي إليك يا سيد ويلسون .

فتابع جابيز ويلسون ، وهو يجفف جبينه بمنديله :

– لقد حكيت لك يا سيد هولمز أن لديّ حانوتاً صغيراً للإقراض بالرهن في ساحة كوبرج وسط المدينة ، وقد ساءت الأحوال في السنتين الأخيرتين ، ولم أعد أكسب عيشي إلا بصعوبة كبيرة ، فصرفت أحد المستخدمَيْن وأبقيت واحداً لديّ فقط ، ودفعت له نصف الراتب لأنه مبتدئ .

فقال هولمز وهو يهز رأسه :

– هذا لطف منه ، ما اسمه ؟

– اسمه فنسانت سبولدنغ ، وقد تخطّى سن الشباب ، وأؤكد لك يا سيد هولمز أنه يستطيع الحصول على ضعف راتبه إذا عمل في مكان آخر .

– حسناً .. لديك مستخدم مثالي بنصف راتب ، ولكن لديه بعض العيوب بلا شك .

– آه ، طبعاً ، إنه على سبيل المثال مولع بالتصوير الفوتوغرافي ، فلا تراه إلا حاملاً آلة التصوير ، فإذا عاد من جولته هبط إلى المختبر في القبو لتحميض الصور ، وهذا عيبه الوحيد ، وما عدا ذلك فهو ممتاز .

– وما يزال يعمل معك كما أظن ؟

– نعم .. ومعنا خادمة صغيرة في الرابعة عشرة ، تنظف البيت وتطبخ لنا بعض الأحيان ، وهما يعيشان معي في البيت لأني أرمل ولم أرزق بالأولاد ، وكنا نعيش حياة عادية حتى بدأت متاعبي بهذا الإعلان اللعين ، فقد دخل سبولدنغ المكتب ومعه هذه الجريدة وقال : كم أتمنى أن يكون شعري أحمر مثل شعرك يا سيد ويلسون .

فقلت له مندهشاً :

– ولِمَ تحبه أن يكون أحمر ؟

فقال :

– لأنه توجد وظيفة شاغرة في جمعية حمر الرؤوس ، والظاهر أنهم يملكون أموالاً طائلة ، ورواتبهم مغرية ، وأعترف لك يا سيد هولمز أني رجل لا يحب الاختلاط بالناس ، لأن طبيعة عملي تقتضي مني المداومة على المكتب ، وقد أبقى أسبوعاً كاملاً لا أغادر المكتب أو البيت ، ولا أقرأ الصحف ، لكني أحب سماع الأخبار . فسألته :

– ما حكاية هذه الجمعية ؟

فدهش سبولدنغ وهو يقول :

– ألم تسمع بجمعية الرجال الحمر الرؤوس ؟

فقلت :

– أبداً .

قال :

– ولكنك تستطيع الحصول على وظيفة بفضل شعرك الأحمر .

فقلت له :

– وما قيمة هذه الوظيفة ؟

أجابني :

– أوه .. إن راتبها لا يقل عن مائتي جنيه سنوياً .. وهي وظيفة سهلة لا تمنعك عن ممارسة عمل آخر في الوقت نفسه .

وبدأت أهتم بكلامه ، لأن المبلغ مغر وخاصة في الظروف الصعبة التي أواجهها . وطلبت منه المزيد من التفاصيل ، فقال :

– إن مؤسس هذه الجمعية رجل أميركي غريب الأطوار يدعى إيزشاه هوبكنس ، وكان أحمر الشعر ويحب الناس ذوي الشعر الأحمر ، حتى إنه تبرّع بعد موته بمبالغ طائلة لتوظيف هؤلاء الناس في وظائف وهمية ، وكل ما أعرفه أن أعضاء الجمعية يكسبون أموالاً كثيرة دون أن يعملوا شيئاً .

فقلت له :

– لا ريب أنه قد تقدم إليه حشد هائل من الرجال ذوي الشعر الأحمر !

فقال :

– لا .. ليس الأمر كما تظن ، لأن الوظيفة مخصصة للرجال من مواليد لندن ، ولأن هذا الأميركي بدأ بتجميع ثروته في لندن ، وسعى لأن يفعل شيئاً لأهلها ، وليس لدي معلومات أخرى سوى أن المطلوب رجال يكون شعرهم أحمر حقاً ، لا يميل إلى الصفرة أو الشقرة ، مثل شعرك تماماً ، وماذا تخسر إذا تقدمت إلى هذه الوظيفة ؟ لو كنت مكانك لما ترددت لحظة .

وباختصار ، فقد أقنعني سبولدنغ ، لأني كنت أشعر طول عمري بالحرج من لون شعري ، فجاءت الآن الفرصة لكي أستفيد منه ، وعزمت على التقدم إلى الوظيفة .

وبما أن سبولدنغ على اطلاع طلبت منه إغلاق الحانوت صباحاً ليصحبني ، ومنذ صباح الغد كنّا في العنوان المذكور .

آه يا سيد هولمز ! إنه مشهد لا أنساه طوال حياتي ، كان المكان غاصاً بالرجال ذوي الشعور الحمر ، من الأصفر بلون الليمون إلى اللون القريب إلى البني ، وهناك الأحمر بلون القرميد ، والأحمر المشمشي .. وما شئت من أنواع هذا اللون !

وكان سبولدنغ على حق ، إذ أن قِلّةً من الرجال شعرهم أحمر فعلاً كشعري .

وحين رأيت هذا الحشد قررت العودة إلى حانوتي ، فما كنت أتوقع رؤية هذا العدد الهائل من الرجال ذوي الشعر الأحمر في لندن . ولم يدعني سبولدنغ أمضي ، فما زال يدفع الناس بمنكبيه ويضرب بمرفقه حتى وصلنا قرب الدرج المؤدي إلى مكاتب الجمعية ، فوجدت صفين من الرجال الحمر رؤوسهم صفاً صاعداً وصفاً هابطاً ، أما الصاعدون فوجوههم مشرقة بالأمل ، وأما الهابطون فتخيم عليها الكآبة ، ولا تستطيع تخيل المشهد .

فقال هولمز :

– شيء ممتع ، أكمل يا سيد ويلسون !

– باختصار مرّت دقائق فوجدت نفسي في المكتب ومعي سبولدنغ لا يفارقني ، كان المكتب خالياً إلا من كرسيّين وطاولة ، ووراءها رجل ضئيل الجسم ، ولكن شعره أشد احمراراً من شعري ! وكان الرجل يتوجّه لمن يتقدم إليه بسؤال ، فلم يكن الانتساب إلى الجمعية أمراً يسيراً .

وحين جاء دوري لاحظت أن الرجل ينظر إلى شعري باهتمام أكثر من الآخرين ، حتى أنه أغلق الباب وطلب مني الجلوس . وتكلم سبولدنغ فقال :

– السيد جابيز ويلسون يتقدم إلى عضوية الجمعية .

فقال الرجل الضئيل :

– أظن طلبه مشروعاً ، لأنه تتوفر فيه كل الصفات المطلوبة ، فلم أر في حياتي شعراً أجمل من شعره .

فأبعد الرجل كرسيّه قليلاً وجعل يتأمل شعري بإعجاب ، وقد أمال رأسه ناحية ، وشعرت بالحرج ، ثم نهض بغتة وانحنى من وراء الطاولة وقال :

– هَانيٍّ يا سيدي ، أنت مقبول ، وأي تردد منك يعتبر جريمة ، ولكن اعذرني إذا اتخذت بعض الاحتياطات .

وما كاد ينطق بهذه العبارة حتى أمسك بشعر رأسي وبدأ يجذبه بكل قوته ، حتى صرخت وأنا أحاول التخلص منه .

فتوقف حالاً وقال :

– اعذرني .. ولكن هذا ضروري ، وأرى من عينيك الدامعتين أنه شعر غير مستعار ، لقد خدعونا مرتين بالشعر المستعار ، ومرّة بالصبغة ، ولو شئت لحكيت لك حكايات يقف لها شعر رأسك الأحمر .

هناك فتح النافذة وصاح بالناس المحتشدين : " إن الوظيفة مشغولة الآن " فتصاعدت دمدمة السخط من الجمهور ، ثم تفرقوا تباعاً .

فعاد إلى الجلوس وهو يقول :

– اسمي دنكان روس ، وأنا كما ترى أحد المستفيدين من الجمعية التي أسسها رجل الإحسان إيزشاه هوبكنس ، وأنا

مديرها ، هل أنت متزوج يا سيد ويلسون ؟ وهل لديك أولاد ؟

وحين أجبته بالنفي تبدلت ملامحه وقال :

– آه .. هذا مؤسف .. فليس هدف الجمعية مساعدة ذوي الشعر الأحمر وحسب ، بل تسعى إلى زيادة نسلهم وانتشاره ، هذا مؤسف فعلاً .. أن تكون عَزَباً .

وكدت أفقد الأمل في الحصول على هذه الوظيفة المغرية ، ولكنه أشار بيده يائساً وهو يقول :

– إن هذا الأمر يمكن تسويته في المستقبل ، فليس من العدل ألا يُكافأ رجلٌ له مثل لون شعرك .

ثم قال :

– متى يمكنك استلام العمل ؟

– هذا أمر محرج ، لأن لدي مهنة ..

فتدخل سبولدنغ قائلاً :

– لا تنـــزعج يا سيد ويلسون .. سأنوب عنك أثناء غيابك .

فقلت :

– سنرى موعد ساعات العمل أولاً .

فقال الرجل :

– إنها من العاشرة صباحاً حتى الثانية بعد الظهر .

وأنت تعلم يا سيد هولمز أن الإقراض بالرهن يكون مساءً على الأغلب ، وآخر الأسبوع عموماً ، وكنت أتمنى أن أربح بعض المال ، وأنا أستطيع الاعتماد على سبولدنغ في إدارة الحانوت .

وسألته :

– كم ستدفعون لي تقريباً ؟

– أربعة جنيهات في الأسبوع .

– وما هي طبيعة عملي ؟

– العمل بسيط ، وهو نظري تقريباً ، ستبقى في مكتب الجمعية من العاشرة إلى الثانية ، ولا يُسمح لك بالتغيب لأي سبب كان ، وإلا طُردت دون سابق إنذار .

– حسناً .. ولكن ما هو عملي بالضبط .

- عليك أن تنسخ " الموسوعة البريطانية " وهذا المجلد الأول أمامك ، هذا المطلوب منك ، ويجب أن تشتري الأقلام والورق بمالك ، فهل تبدأ غداً ؟

- بالتأكيد .

فقال دنكان روس :

- إلى الغد .. وهانينا مرة ثانية لدخولك في جمعيتنا .

خرجت مع سبولدنغ إلى البيت ونحن بغاية السرور .

فقال هولمز :

- وماذا حدث بعد ذلك ؟

قال ويلسون :

- بقيت طول النهار أفكر بهذه الوظيفة العجيبة ، وهل من المعقول أن يدفع مبلغ أربعة جنيهات أسبوعياً لشخص لأن شعره أحمر فقط ، ولا بد أن وراء هذا الأمر احتيالاً أو شيئاً شبيهاً به .

وحاول سبولدنغ أن يؤكد لي أن الأمر طبيعي وله سابقات مثله ، ولكني عزمت على التخلّي عن هذه الوظيفة .

ومن صباح الغد فكرت جيداً ، ورأيت أن القضية بسيطة ولا تستحق كل هذا التردد ، فاشتريت زجاجة حبر وعدّةَ رِيَشٍ ومجموعةَ أوراق ، وذهبت إلى مكتب الجمعية ، وكم دهشت يا سيد هولمز إذ رأيت الأمور عادية جداً ، فقد استقبلني دنكان روس ، وجلب لي المجلد الأول من الموسوعة البريطانية ، وباشرت العمل وبدأت بحرف الألف .

وأثناء الدوام جاءلي عدة مرات ليطمئن عليّ ، ووجد عملي ممتازاً ، وفي الساعة الثانية ودعني وأغلق مكاتب الجمعية .

واستمر ذلك ثمانية أسابيع ، وكل سبت يدفع لي الموظف ظرفاً فيه أربعة جنيهات ذهبية أجرة الأسبوع ، وتناقصت زيارات روس لي حتى لم أعد أراه في الأيام الأخيرة ، وكنت قادراً على التغيب ، ولكني خشيت أن أفقد هذا العمل السهل المجزي ، ووصلت إلى حرف الباء ، وقد امتلأت الرفوف من حولي بالأوراق . وفجأة توقف كل شيء .

وقال هولمز :

– كيف حدث هذا ؟

ذهبت صباح ذلك اليوم إلى الجمعية فوجدت ورقة مثبتة على الباب وفيها هذه العبارة " لقد حُلت جمعية الرجال ذوي الرؤوس الحمر " وإليك الورقة ، فاقرأها بنفسك .

وقدّم إلينا ورقة مستطيلة من الكرتون كتبت عليها العبارة المذكورة وتاريخها 9 تشرين الثاني 1890 .

وسأل هولمز :

– وهل كان الباب مغلقاً ؟

– نعم بقفل كبير يا سيد هولمز .

وتبادلت النظر مع هولمز ، وكتمنا ضحكنا للحزن البادي على وجه ويلسون ، فقال وقد احمر وجهه غضباً :

– لا أرى ما يُضحك في هذه القضية ، وإذا كنتم ستسخرون مني فسوف أذهب لأرى سواكم .

فقال هولمز وهو يمسح عينيه ويضطره إلى الجلوس :

– لا .. لا يا سيد ويلسون ، لا أريد أن أترك هذه القضية لأنها نادرة .. وماذا فعلت بعدئذٍ ؟

فقال ريلسون وقد هدأ :

– ذهبت إلى المكاتب المجاورة وطرقت أبوابها فلم يجبني أحد ، فطرقت باب صاحب البناية وسألته عما حدث للجمعية ، فقال إنه لم يسمع بها من قبل ، وسألته عن السيد روس فأجابني إن كنت أعني الرجل ذا الشعر الأحمر ساكن المكتب رقم **14** ؟

فقلت له :

– إنه المقصود .

فقال :

– إنه يدعى ويليام موريس ، وهو مستشار قانوني يستخدم هذا المكتب مؤقتاً حتى ينجز مكتبه ، وقد انتقل مساء الأمس .

وقلت له :

– إني أريد أن أراه .

فقال :

– هذا سهل لأنه ترك عنوانه ، وهو رقم 17 شارع الملك إدوارد .

فأسرعت إلى هذا العنوان فوجدت فيه مصنعاً للأعضاء الاصطناعية ، ولا أحد يعرف دنكان روس أو ويليام موريس .

فقال هولمز :

– وماذا فعلت بعدئذٍ ؟

– رجعت إلى الحانوت وسألت مستخدمي عن رأيه في القضية ، فدهش وطلب مني التريث لعلّ البريد يحمل إليّ بعض الأخبار ، ولكن هذا لم يعجبني يا سيد هولمز ، فكيف أفقد هذه الوظيفة المجزية ولا أناضل لاستعادها ؟!



لقد سمعت يا سيد هولمز أنك تقدم النصائح المفيدة إلى الناس ، فدفعني هذا إلى المجيء إليك .

فقال هولمز وقد استعاد وقاره :

– حسناً فعلت يا سيد ويلسون ، وبحسب ما سمعت منك فإن هذه القضية أخطر مما تتصور .

فصاح ويلسون :

– وهل يوجد شيء أخطر من فقدي لوظيفتي هذه ؟

فقال هولمز :

– اطمئن .. فلن ينالك الأذى ، لأنك ربحت حوالي الثلاثين جنيهاً بالإضافة إلى الثقافة الواسعة التي حصلت عليها من حرف الألف في الموسوعة البريطانية ، فالجمعية لم تسرق منك شيئاً .

– هذا صحيح ، ولكن ما هذه الجمعية ؟ ومن وراءها ؟ ولِمَ اختاروني أنا بالذات ؟

– سنسعى إلى حل هذه الألغاز ، ولكن هذا المستخدم منذ متى يعمل لديك ؟

– منذ ثلاثة أشهر تقريباً .

– وكيف تعرفت إليه ؟

– نشرت إعلاناً في الجريدة .

– وهل تقدم إلى الوظيفة أحد سواه ؟

– نعم ، حوالي العشرة ، ولكني اخترته لأني وجدته نشيطاً ورضي براتب الموظف المبتدئ .

– وكيف شَكْلُ سبولدنغ هذا ؟

– إنه رجل ضئيل الحجم ، مربوع القامة ، أصلع الرأس وإن لم يتجاوز الثلاثين من العمر ، وفي جبهته أثر لجرح أبيض ، قال إنه حرق بالأسيد .

فنهض هولمز فجأة وقال :

– حرق بالأسيد على جبهته ؟ ألم تلاحظ أن أذنيه مثقوبتان كأنه يضع فيهما قرطاً ؟

– نعم يا سيد هولمز ، وذكر لي أن غجرية ساحرة ثقبت أذنيه حينما كان صغيراً .

فقال هولمز وهو غارق في التفكير :

– نعم .. نعم .. أما يزال يعمل عندك .

– بالتأكيد .. لأني تركته في الحانوت قبل قدومي إليك .

– وهل أدى عمله أثناء غيابك في الجمعية ؟

– أوه على خير وجه ..

– حسناً .. يا سيد ويلسون ، يسعدني أن أطلع على نتائج تحرياتي خلال يوم أو يومين ، اليوم هو السبت ، وسوف تعرف النتيجة يوم الاثنين .

ورافق هولمز الرجل إلى الباب وعاد إليّ قائلاً :

– ما رأيك يا واطسون في هذه القضية العجيبة ؟

– أراها عجيبة فعلاً .

– أما أنا فأرى أن القضية كلما بدت عجيبة سهل حلها ، فالقضايا العادية هي الصعبة ، مثلما أنك لا تستطيع قراءة أفكار الرجل العادي ، وتسهل عليك معرفة الرجل الاستثنائي ، ولكن يجب إنهاء هذه القضية بسرعة .

– وماذا ستفعل ؟

– سأدخن غليوني وأتأمل ، وأرجو أن تتركني ساعة وحدي ،

وجلس على الكنبة وقد ضمّ ركبتيه إلى صدره وغليونه الأسود في فمه كأنه طير من الكواسر . وغفلت عيني قليلاً ، ثم نهض وقال :

– ضع قبعتك واذهب معي .

– إلى أين ؟

– سنستمع إلى الأوكسترا ، وأفضل الموسيقا الألمانية الآن ، لأني بحاجة إلى التأمل ، هيا معي ! .

وركبنا المترو حتى شارع (ألدرغيت) ، ثم مشينا بضع دقائق إلى ساحة (ساكسكوبرج) ، حيث جرت بعض أحداث حكاية جابير ويلسون ، وهي محاطة بالبيوت القرميدية المبنية على طابقين ، وقد تكدس بعضها على بعض لئلا تتداعى .

تأمل هولمز واجهة الحانوت العائد لويلسون ، وقد أمال برأسه ناحية ، وأغمض عينيه نصف إغماضة ، ثم نزل الشارع بخطا وئيدة ، وعاد فصعده وهو يتفحص الواجهة جيداً كأنه

يريد اختراقها بنظراته ، ووقف أمام باب الحانوت ، ودقّ على الأرض بعصاه ثلاث مرات ، ثم قرع الباب ، ففتحه شاب نشيط براق العينين وطلب منا الدخول ، فقال هولمز :

– اعذرني فقد ضللت الطريق إلى شارع ستراند .

– إنه في ثالث منعطف على اليمين ، والرابع على اليسار .

ثم أغلق الباب ، فمشينا ساكتين .

وقال هولمز بعد قليل :

– إنه سريع هذا الرجل ، ما رأيك ؟

– نعم إنه في الرتبة الرابعة من الاجرام في لندن ، وهو يسعى إلى الرتبة الثالثة ، وأعرفه سابقاً .

وسأل هولمز :

– هل لاحظت ركبتي بنطاله ؟

– لا ، لم ألاحظ شيئاً .. ولكني أسألك لماذا طرقت الأرض بعصاك ؟

فقال هولمز :

– ليس الآن وقت الكلام ، بل وقت النظر ، ألا ترى الحارات التي نحن فيها الآن ؟ إنها قذرة ومتداعية .

وما إن درنا حول ساكسكوبرج حتى وجدنا أنفسنا في شوارع فسيحة نظيفة ، كأنها النقيض لتلك الحارات الفقيرة .

وإن المرء ليتساءل كيف تولي هذه الأحياء الجميلة ظهرها لمثل تلك الحارات القذرة المتداعية مع أنها لا تبعد عنها سوى أمتار قليلة .

واستوقفني هولمز قائلاً :

– انتظر ! يجب أن أتذكر تسلسل الحوانيت ، انطلاقاً من الزاوية هناك بائع الدخان ، فبائع الجرائد ، ثم فرع كوبرج لبنك المدينة ، وبعده مطعم النباتيين ، ومؤسسة دفن الموتى ، وبائع أحذية ، ومعرض عربات . حسناً انتهى العمل الآن ، فلنروّح عن أنفسنا ، ما رأيك بشطيرة وفنجان قهوة قبل الذهاب إلى الحفلة الموسيقية يا دكتور ؟

والمعروف أن شرلوك هولمز يحب الموسيقا ، وهو عازف كمان ممتاز ، وقد ألّف بعض القطع الموسيقية التي تدل على رهافة حسه .

وقضى هولمز بعض الظهر كله جالساً في مقعده يستمع إلى الموسيقا الألمانية وهو يحرك أصابعه الطويلة على إيقاعها ، وقد غرق في تفكير عميق .

لا أدري كيف أصف هولمز ، إنه مثل قاصّ الأثر يتبع منطقاً رياضياً بحتاً ، وكأنه الفأس الفولاذية الحادة ، ولكنه حين يصغي إلى الموسيقا يتحول إلى إنسان مرهف الإحساس رقيق المشاعر ، يغيب مع الموسيقا في أدق نغماتها .

ولكن هولمز في الحالتين لا يتوقف عن التفكير في إيجاد حل للقضايا المطروحة عليه .

وحين خرجنا من الحفلة الموسيقية سألني :

– أظنك ستذهب إلى بيتك الآن ؟

– نعم .. بالتأكيد .

– أما أنا فلدي ساعات من العمل ، إن قضية كوبرج سكوير متعبة ، لأن شيئاً ما يُحضّر في الخفاء ، وآمل أن أمنع حدوثه ، والمؤسف أننا في يوم السبت .. المهم .. إني أحتاجك هذا المساء .

– أي ساعة ؟

– العاشرة .. هل هذا ممكن ؟

– سأكون عندك في العاشرة .

– بالمناسبة لا تنس حمل مسدسك .

وحرّك يده واختفى بين الناس .

لا أعتبر نفسي إنساناً بليد التفكير ، ولكني أشعر بالنقص في حضور هولمز ، لأني رأيت ما رأى وسمعت ما سمع ، ولم أكتشف في هذه القضية المضحكة شيئاً غير عادي ، ولكنه وجد وراءها جريمة تدبر في الخفاء !

هذا ما كنت أفكر فيه وأنا متوجه إلى بيته في بيكر ستريت ، فرأيت أمام الباب عربتين ، وحين صعدت الدرج سمعت أصواتاً من الداخل .

لقد كان هولمز يحادث رجلين ، أحدهما المفتش (بيتر جونز) ضابط في الشرطة الجنائية ، والثاني رجلٌ نحيل الوجه ، يرتدي ثياباً أنيقة قاتمة ، تدل على أنه من رجال الأعمال .

وقال هولمز حين دخلت :

– آه دكتور واطسون .. كنا بانتظارك ، أظنك تعرف المفتش جونز ! وهذا السيد (ميري ويذر) سوف يصحبنا في جولتنا الليلية .

فقال المفتش بلهجته المتكبرة المعتادة :

– سنذهب إلى الصيد جماعة ، ولكن السيد هولمز هو الذي يصيب الطريدة ، ويحتاج إلى كلاب صيد لتجلبها إليه .

فقال رجل الأعمال بلهجة كئيبة :

– آمل ألا تنتهي جولتنا بالفشل .

فقال المفتش :

– إن للسيد هولمز طريقته الخاصة في التعامل مع القضايا ، وله موهبة لا يمكن إنكارها ، وقد أفادنا في عديد من المناسبات .. وأذكر أن قضية الجريمة ..

فقاطعه الرجل قائلاً :

– أنا واثق من صدق كلامك لأني أثق في شرطة سكوتلانديارد ، ولكن ما يحزّ في نفسي أني لن أذهب لألعب البريدج مع أصدقائي هذا السبت ، فأنا أداوم على هذه السهرة منذ سبعة وعشرين عاماً ، وهذه أول مرة أتخلف فيها .

فقال هولمز بلهجة مرحة :

– ولكنك لم تلعب في حياتك على مبلغ كبير من المال كما تفعل هذا المساء ، فاللعب يدورحول ثلاثين ألف جنيه تقريباً ، والقضية لا تقل أهمية عن ذلك بالنسبة إليك يا سيد جونز .

فقال المفتش وهو يشد قبضتيه :

– إنه جون كلاي ! القاتل ، السارق ، المزيِّف ، المحتال ، إنه شاب يا سيد ميري ويذر ، ولكنه يتقن فن الإجرام ، على الرغم من أنه سليل عائلة نبيلة ، وقد تلقى ثقافته في إيتون وأكسفورد ، طاردته منذ سنوات ولم أستطع الإمساك به ، لأنه يتفلت من أصابعي كسمكة الشبوط ، وقد نهب قصراً في

سكوتلاندا ، ومن الغد زيّف شيكاً في جنوب إنكلترا ، ولم أره منذ ذلك الوقت .

فقال هولمز :

– آمل أن ألاقيك به هذا المساء ، وسوف آخذ بثأري منه ، فقد تفلت مني عدة مرات ، ولابد من الاعتراف ببراعته ، لكنني أضيّع الوقت الآن ، ستأخذان العربة الأولى ونتبعكما بالثانية ، تفضلوا ..

لم يكلمني هولمز طول الرحلة ، بل كان يدندن اللحن الذي سمعه بعد الظهر ، وهو شديد المرح . وبعد أن دخلت بنا العربة في حارات ضيقة ، التفت إليّ قائلاً :

– نسيت أن أقول لك إن السيد ميري ويذر مدير البنك والقضية تخصه مباشرة ، وقد آثرت اصطحاب المفتش جونز على الرغم من أنه غبي من الناحية المهنية طبعاً ، ولكنه عنيد شجاع مثل كلب البوكسر ، فإذا أمسك فريسته لم يتركها ولو قتلته .. ها قد وصلنا .

نزل السيد ميري ويذر وتبعناه إلى درب جانبي ، ثم دخل دهليزاً حديدياً مصفحاً ، واجتزناه إلى باب ثالث ضخم ، ففتحه أيضاً ، وهبطنا درجاً حلزونياً حتى وصلنا إلى باب آخر لا يقل عن الأبواب السابقة ضخامة وتصفيحاً ، فاجتزنا ممراً مبنياً بالإسمنت يؤدي بابه إلى قبو رطب ، فأناره الرجل بمصباحه ، فرأيت صناديق خشبية وصناديق حديدية كبيرة ، فقال هولمز وهو يرفع مصباحه :

– لا أراك محترساً من السقف .

فقال ميري ويذر :

– ولا من الأرض أيضاً .

وضربها بعصاه فصاح وقد شحب لونه :

– ما هذا .. يا رب !

فقال له هولمز بلهجة حازمة :

– أرجوك أن تتمالك نفسك وإلا أفسدت خطتنا ، وتفضل بالجلوس على أحد هذه الصناديق ولا تتحرك . فعضّ ميري ويذر على شفتيه وجلس فوق صندوق كأنه ببّغاء هرم

أسيء إليه . وأمسك هولمز بالعدسة المكبرة ، وجثا على الأرض يتفحص البلاطات والشقوق بعناية ، ثم نهض قائلاً :

– لا أظنهم يغامرون إلا بعد ساعة من الآن ، ينتظرون أن ينام جابيز ويلسون ، ولكنهم لن يتأخروا دقيقة بعدئذٍ لأنهم كلما أسرعوا كان أسلم لهم .

والتفت إليّ وقال :

– هل عرفت أين نحن الآن يا واطسون ؟ إننا في أقبية البنك ، وسوف يشرح لك رئيس مجلس الإدارة ما يجذب لصوص لندن إلى هذه الأقبية

فقال ميري ويذر :

– إني أجلس الآن على صندوق يحتوي قطعاً ذهبية ، وما تراه حولك من صناديق تحتوي على ألفي قطعة ذهبية استدانها منا أحد المصارف الفرنسية ثم أعادها إلينا في الفترة الأخيرة .

فقال هولمز :

– هذا ما يجذب اللصوص .. سنأخذ مواقعنا الآن ولنطفئ المصابيح .

فقال المصرفي :

– وهل نبقى في الظلام ؟

فأجابه هولمز :

– هذا أفضل .. جئت معي بورق لعب لكي نتسلى ، ولكن تبين لي أنهم قد تقدموا في عملهم كثيراً ، وليس من الحذر أن نثير ضجة ، وسوف أشعل المصابيح في الوقت المناسب ، وحينئذٍ اهجموا عليهم ، ولكن احذروا فإنهم خطرون . وإذا أطلقوا الرصاص فلا تتردد يا واطسون واصرعهم كالكلاب .

فوضعت مسدسي على صندوق في متناول يدي ، وكان الظلام دامساً والرطوبة شديدة .

وهمس هولمز :

– ليس أمامهم مجال للهروب سوى بيت ويلسون ، فهل اتخذت احتياطاتك يا جونز ؟

– وضعت مفتشاً وثلاثة من رجال الشرطة لمراقبته .

– حسناً .

ومرت ساعة وربع الساعة في الظلام ، ولكني حسبتها ليلة طويلة وقد تيبّست مفاصلي ولا أجرؤ على الحركة لئلا أصدم شيئاً .

وتوسعت عيناي في الظلام وأنا أتخيل أني رأيت نوراً في أرضية القبو ، وبدا نوراً شاحباً بين بلاطتين ، ثم توسع وارتفعت البلاطة بهدوء ، ثم ظهرت يدٌ من الحفرة ، يدٌ ناعمة بيضاء كأنها يد امرأة ، وتلمست اليدُ فيما حولها ثم انسحبتْ .

بعد ثوان زُحزحت البلاطة تماماً ، وظهر رأس ، فتلفتَ ثم ارتفع جسدُه وجثا بجانب البلاطة دون ضجة ، وظهر رجل آخر نحيل الجسم مرن الحركات شعره أحمر قاني الحمرة ، وهمس الأول :

– تمام .. كل شيء على ما يرام .. هل جئت بمقص الحديد ؟ اذهب يا آرشي .. اذهب .. إني قادر على التصرف وحدي .

فأضاء هولمز المصباح وأمسك بالرجل ، واندفع جونز وراء الرجل الذي غاب في الحفرة ، وسمعنا صوت تمزق سترته .

والتمع النور على مسدس الرجل ، لكن هولمز عاجله بضربة أطارته من يده وصاح به :

– لا فائدة يا جون كلاي ! لقد وقعت ..

فقال الآخر بصوت هادئ :

– هذا ما أراه .. ولعل صاحبي ينجو بنفسه .

– لن ينجو ، لأن الشرطة تنتظره على الباب .

فقال الشاب بصوت مرح :

– أحسنت .. لم تنس شيئاً .. هّانيَ .



فقال هولمز مبتسماً :

– وهاني أيضاً .. إن فكرة جمعية ذوي الشعر الأحمر رائعة ومبتكرة .

وصاح به جونز :

– مدّ يديك لأضع الأصفاد فيهما .

فقال الشاب :

– أبعد يدك القذرة عني ، ألا تعلم أن الدم الملكي يجري في عروقي ؟ ولا تخاطبني إلا باحترام .

فقال جونز هازئاً :

– هل يتفضل سيدي الكريم بصعود الدرج ؟ لأن عربة مصفحة تنتظر سيادتكم لتمضي بكم إلى السجن .

فضحك جون كلاي وقال : هذا أفضل .

ثم انحنى لنا بتحية ومضى مع المفتش .

قال المصرفي وهو ذاهل : لا أدري يا سيد هولمز كيف أشكرك .. وهل يستطيع المصرف أن يوفيك حقك ؟

فقال هولمز بلا مبالاة : لا شكر على واجب .. ولكني لا أرفض شكر المصرف لي !

****

******

*

طلع الفجر علينا ونحن جالسان أنا وهولمز في بيته أمام المدفأة ، فقال لي : أرأيت يا واطسون ؟ هذا الإعلان عن الجمعية ونسخ الموسوعة البريطانية ليس لهما تفسير واحد غير المزاح ، وقد كانت أربعة الجنيهات أسبوعياً طُعْماً في طرف الصنارة وضعوه لكي يخلو لهم حانوت ويلسون .

– الواضح أن لون شعر صاحبه الأحمر قد أوحى له بهذه الحيلة .

– أكيد ، ولكني أدركت أنها ليست مزاحاً حين عرفت أن جون كلاي قد قبل العمل بنصف أجرته .

لم أجد دافعاً حقيقياً ، لأن ويلسون ليس رجلاً غنياً ولا مطمع فيه ، فما الدافع ؟ وما السبب الكامن وراء هذه الترتيبات كلها ؟ ولا تنس أن جون كلاي كان يقضي ساعات في القبو لتحميض الأفلام كما يدعي ، وحين وصف لي ويلسون " سبولدنغ " عرفت في الحال أنه أعتى لصوص لندن ، فما عساه يفعل في قبو الحانوت ؟ لا بد أنه يحفر نفقاً ، ولكنه إلى أين يؤدي ؟ ورأيت كيف دهشت حين رأيتني أضرب

الأرض بعصاي ، فتأكدت أن الأرض تردّد الصدى ، والحق أني لم أكن أقلّ دهشة عنك ، ولاحظت أن النفق إن وجد فلا بد أن يمتد إلى وراء الحانوت ، وحين قرعت الباب وفتحه لي سبولدنغ عرفته فوراً ، ونظرت إلى ركبتيه المهترئتين فعلمت أنه يعمل جاثياً وعمله لا يتطلب هذا ، فدرنا حول المنـــزل فوجدنا أن البنك يقع وراءه تماماً ، والنتيجة واضحة لك الآن .

– وكيف علمت أنهم سيضربون ضربتهم هذا المساء ؟

– حينما أنهوا حفر النفق لم يعودوا بحاجة إلى إبعاد ويلسون عن حانوته ، فأغلقوا الجمعية أيضاً . وكان عليهم الإسراع في العملية فقد يُكتشف أمرهم ، أو ينقل البنك ودائعه الذهبية ، ويوم السبت توقيت ملائم لأن البنك مغلق يوم الأحد ، فيكون لديهم متسع من الوقت للهرب .

فهتفت بإعجاب : هذا منطق رائع !

فقال هولمز : وكم أنقذني المنطق من مواقف حرجة !

الرجل ذو الشفة المقلوبة



ذات مساء من شهر حزيران سنة 1889 قُرع جرس الباب في ساعة ينام الناس العاديون فيها ، فرميت جريدتي من يدي منـــزعجاً ، واستأنفت زوجتي تطريزها وهي تتمتم :

– لعله أحد المرضى ، فأنت مضطر إلى الخروج !

وتأففتُ لأن نهاري كان متعِباً . وما كادت الخادمة تفتح الباب حتى اندفعت إلى القاعة امرأة لابسة ثياباً سوداء ، وقد غطت وجهها بشبكة حريرية ، وقالت بصوت متقطع :

– اعذريني لأني جئت في هذه الساعة .

ثم ارتمت على كتف زوجتي تنتحب وهي تقول :

– أوه يا ماري ! أوه يا ماري ! لم أعد أحتمل ..

فقالت زوجتي :

– إنها كيت ويتني ، ماذا حدث يا عزيزتي ؟

– ضاقت بي الحيل ، فجئت لأراك .

– حسناً فعلت ، اجلسي واهدئي .. تناولي كأساً من الماء .. سيذهب زوجي إلى النوء فتحكين لي كل شيء .

فاعترضت كيتي قائلة :

– لا إني بحاجة إلى نصح الدكتور ومساعدته .. الأمر يتعلق بإيزا زوجي .. لقد اختفى منذ يومين .

وأدركت أن سبب بكائها هو إيزا ، إنه رجل طيب لكنه أدمن تدخين الأفيون ، وحدث ذلك وهو في العشرين من العمر ، حين أراد أن يقلد رفاق السوء ، فلم يستطع الإقلاع عن هذه العادة الرذيلة . وبعد سنوات أصبح في حالة يرثى لها ، وتدهورت صحته ، فشحب لونه وانطفأ بريق عينيه وفقد شبابه . ولم تكن هذه المرة الأولى التي تشكو إلينا كيتي همها ، إذ كانت زميلة زوجتي في الدراسة ، وأنا طبيب العائلة . وسألتها عن مكان زوجها ، فقالت إنه يتردد على بار سيئ السمعة يدعى " البار الذهبي " ، شرق لندن في شارع (أبرسويندام) .

وكان يتغيب عن البيت ليلة واحدة ، ولكنه لم يظهر منذ يومين .. ولم يكن أمامي ما أفعله سوى ركوب العربة إلى شرق لندن والمجيء به ، لأنه يستحيل على امرأته أن تقوم بذلك .

وبعد عشر دقائق كنت أسير في ظلام الليل ، حتى وصلت إلى البار المذكور ، فنـــزلت إليه عدة درجات ، وطلبت من سائق العربة أن ينتظرني .

وجدت " البار الذهبي " قاعة طويلة منخفضة ، يملؤها دخان أزرق ، عابقة برائحة الأفيون ، وقد اصطفت على جانبيها أسرّة كالمهاجع بعضها فوق بعض ، كأنها عنبر للمهاجرين في إحدى السفن ، وقد رقد عليها المدخنون ، بعضهم مستلقٍ على ظهره مفتوح الفم ، وآخرون جالسون القرفصاء ورأسهم بين رُكَبهم ، وآخرون يحدقون في السقف وقد غامت نظراتهم .

وفي صدر القاعة وجدت رجلاً هرماً نحيلاً قد أسند رأسه إلى كفيه ، وفي فمه غليون منطفئ ، وهو يحدق في الموقد وكأنه لا يراه .

وحين دخلت سارع إليّ صاحب البار يحمل غليوناً وقطعة أفيون ، ودعاني إلى الجلوس ، فقلت له :

– شكراً لك .. جئت باحثاً عن أحد أصدقائي ، السيد إيزا ويتني ، أريد أن أكلمه .

حينئذٍ سمعت صوتاً عن يميني ، ووقف رجل غائم النظرات وقال :

– آه يا رب .. إنه الدكتور واطسون !

لقد كان ويتني يحدق إليّ بأعين واسعة ، وقد توفزت أعصابه كأنما لسعه تيار كهربائي .

وتقدمت إليه ، فسألني :

– كم الساعة يا واطسون ؟

فقلت له :

– إنها الحادية عشرة تقريباً .. ونحن في يوم الخميس .

– يوم الخميس .. أنت تمزح لا شك ، نحن في يوم الأربعاء .

– أقول لك إنه الخميس .. وكيتي تنتظرك منذ يومين .

فجلس على طرف الفراش وأسند رأسه إلى كفيه وهو ينتحب ، وقال بصوت كئيب :

– هذا مريع .. هذا فظيع !

فوضعت يدي على كتفه وقلت له :

– هيا .. لنذهب إلى البيت .

– نعم .. لنذهب ، آه يا كيتي البائسة .. يا كيتي الحبيبة ! ناولني يدك يا واطسون ، أحس بالعياء .. هل معك عربة ؟

– إنها تنتظر في الخارج .

– حسناً لنذهب ، ولكن يجب أن أدفع الحساب لصاحب البار ، ادفع له أنت من فضلك ، فإني لا أميّز الأشياء .

فذهبت إلى صاحب البار مجتازاً الممر الضيق بين الأسرّة ، وقد حبستُ أنفاسي لئلا أشم هذه الرائحة الكريهة ، وحين مررت بجانب الرجل الهرم النحيل الجالس بقرب المدفأة ، لمس ذراعي وهمس لي بصوت خافت :

– اجتزني ثم انظر خلفك .

فمشيت خطوتين ونظرت ورائي لأرى ذلك الرجل الذي لا يريد أن ينتبه إليه أحد ، وحسبتني أعرفه ، وحدقت فيه وإذا عيناه تلمعان بابتسامة ماكرة ، ولم يكن سوى شرلوك هولمز ، فدنوت منه وسألته بصوت خافت :

– ماذا تفعل هنا ؟

– تخلص من صاحبك الثقيل ، لدي ما أقوله لك .

– العربة أمام الباب .

– ضعه في العربة ، وأرسله مع كلمة إلى زوجتك ، فهو في حالة لا تتيح له إيذاء نفسه .

فدفعت الحساب لصاحب البار ، ووضعت إيزا ويتني في العربة ، وكتبت بضع كلمات لزوجتي ، وضاعفت للسائق الأجرة ، فانطلقت العربة إلى بيكر ستريت .

وانتظرت بضع دقائق على الرصيف ، وإذا الرجل الهرم النحيل يخرج من البار وعيناه غائمتان ، وشفته متدلية ، وتقدم إليّ وهو يجر قدميه . فابتعدنا عن الرصيف ودرنا في المنعطف ،

فاعتدل في مشيته وشدّ قامته وهو يضحك ضحكاً عالياً ، فقلت له :

– لم أتوقع أن أجدك في مثل هذا المكان الموبوء ..

– ولا أنا أيضاً .

– لقد جئت باحثاً عن صديق .

– وأنا أبحث عن عدو .

– عن عدو ؟

– لنقل إنه أحد طرائدي المعتادة ، وقد أدت بي تحرياتي إلى هذا المكان ، ولو اكتشفوا أمري لساءت العاقبة ، لأن وراء هذا الباب ، قرب رصيف الميناء ، يوجد سرداب ترمى منه الأشياء غير المرغوب فيها في الليالي المظلمة .

– هل تعني أنهم ..

– نعم .. يرمون الجثث .. هذا أوخم مكان في لندن يا واطسون ، وأخشى أن يكون (نيفيل سنكلير) قد رمي في السرداب مثل سواه ، يجب أن نجد الآن عربة .

ووضع إصبعيه في فمه وصفر صفيراً عالياً ، فجاوبه صفير مماثل من بعيد . وبعد لحظات سمعت صوت عربة تقترب ، فقال هولمز :

- أظنك ستأتي معي ؟

وتوقفت أمامنا العربة .

- بكل سرور .. فقد أكون مفيداً لك .

- إن الصديق المخلص مفيد دوماً ، وخاصة إذا كان من المهتمين بالتاريخ .

- وأين سنذهب ؟

- إلى منطقة (كنت) قرب (لي) حيث يسكن - أو كان يسكن - نيفيل سنكلير ، لدي هناك غرفة وفيها سريران من أجل تحرياتي ، لا تجزع ، فهي على مسافة عشرة كيلو مترات فقط .

والتفت إلى السائق قائلاً :

- جون .. ما عدنا بحاجة إليك .. خذ نصف جنيه وتعال غداً صباحاً حوالي الحادية عشرة .. مع السلامة !

كان هولمز يسوق العربة عبر حارات ضيقة قذرة ، وما إن وصلنا الضواحي حتى أشعل غليونه وقال :

– من صفاتك الحسنة يا واطسون أنك تحسن الصمت ، وإن أفكاري لسوء الحظ سوداء قاتمة ، وأسأل نفسي ماذا سأقول لهذه المرأة البائسة التي تنتظرنا على عتبة دارها ؟

– لا أستطيع مساعدتك ، لأني أجهل تماماً القضية التي تحقق فيها .

– هذا حق ، سألخص لك القضية فهي في غاية البساطة ، ولكني غير قادر على الوصول لأي دليل فيها ، إن السيد نيفيل سنكلير يملك فيلا جميلة واسعة ، وقد استقر في منطقة (لي) في شهر أيار **1884** ، وعاش حياة هانئة . وفي سنة **1887** تزوج فتاة من المنطقة ، يملك أبوها حانة . وليس لنيفيل سنكلير مهنة محددة ، ولكنه يقوم بصفقات تجارية ، فيذهب كل صباح إلى لندن ويعود إلى منطقة (لي) في قطار الخامسة ، وهو رجل في السابعة والثلاثين مخلص لزوجته ، محب لأولاده ، وفيٌّ لجيرانه ، طيب المعشر ، حسن السمعة . وقمت بتحرياتي فوجدت أنه

غير مدين لأحد ، ولا دخل للمال في القضية التي نحن بصددها ، وقد غادر هذا الرجل الودود منـــزله الاثنين الماضي أبكر من المعتاد ، لأن لديه موعدين هامين ، ووعد ولده بأن يشتري له لعبة تركيبيّة .

وبعد مغادرته المنـــزل ، تلقت زوجته إشعاراً من إحدى شركات النقل تعلمها بوجود طرد باسمها في مكاتبها ، وبما أنك من سكان لندن فأنت تعلم أن لهذه الشركة فرعاً في شارع (فريسنو) المؤدي إلى (أبرسويندام ستريت) الذي التقينا فيه منذ قليل ، وبعد الغداء انطلقت السيدة سنكلير إلى لندن واشترت بعض ما تحتاجه ، وذهبت بعدئذٍ إلى الشركة لاستلام الطرد ، وما إن وصلت شارع أبرسويندام ستريت الساعة الخامسة إلا خمس دقائق حتى سمعت صوت استغاثة ، فرفعت رأسها ، فماذا رأت ؟

– ماذا رأت يا هولمز ؟

– لقد رأت ، أو خيّل إليها أنها ترى في نافذة من الطابق الثاني زوجها يناديها ويشير إليها بيديه . وكانت النافذة مفتوحة

فرأت وجه زوجها بوضوح وقد ظهر عليه الهياج ، ويداه تلوّحان لها ، ولكنه اختفى فجأة كأن يداً جذبته إلى الداخل ، والشيء الذي لفت انتباهها أن زوجها يرتدي بذلته المعتادة ، ولكن بلا ربطة عنق ، ومنذ ذلك الحين لم تر السيد نيفيل سنكلير .

وهتفت متعجباً :

– وكيف حدث ذلك ؟

– اختفى تماماً . أما المكان الذي رأته فيه فهو الطابق الثاني من " البار الذهبي " الذي وجدتني فيه ، وحاولَتِ الدخول لكن صاحب البار منعها ، فاستدعتْ دوريةً شرطة ودخلوا البار ، وفتشوه فلم يجدوا في الطابق الثاني سوى شخص عاجز مشوه الوجه ، وأكد صاحب البار والشخص العاجز لدورية الشرطة أنه لم يصعد أحد إلى الطابق الثاني طول النهار ، فصدق المفتش كلامهما ، وظن أن المرأة قد تراءت لها خيالات أو أصيبت بهلوسات ، فصرخت صرخة هائلة حين وَضَع على الطاولة علبةً خشبية تحتوي على لعبة تركيبية .

وعاد المفتش ليحقق في القضية التي وجدها خطيرة ، خاصة وأن الرجل العاجز قد أصابه الاضطراب لرؤية اللعبة التركيبية . وأدى التفتيش الدقيق للمكان إلى اكتشاف غرفة في القاع تؤدي إلى حوض الميناء ، وتبين للمفتش أن النافذة التي رأت منها السيدة سنكلير زوجها ملطخة ببقع من الدماء ، وكذلك أرضية الغرفة ، كما وجد المفتش في الغرفة الأمامية ملابس سنكلير من حذاء وجوارب وقبعة ، إلا بذلته ، ويعتقد أنه قد اختفى من النافذة لأنه لا يستطيع الهرب سباحة ، فالجَزْر البحري كان منخفضاً في تلك الساعة ، والشاطئ الذي أمام البناء جاف من الماء .

أما صاحب البار فهو معروف لدى الشرطة ، ولكن السيدة سنكلير رأته في تلك اللحظة أمام الباب ، وليس في النافذة التي لمحت منها زوجها . وأما الرجل العاجز فهو آخر من رأى السيد سنكلير ، لأنه يسكن الطابق العلوي ، واسمه (هاف بون) ، وهو متسول مشوه الوجه مشهور في شوارع لندن ، ويزعم أنه يبيع علب الكبريت ، ولكنه يعيش في الواقع

مما يرميه الناس من قطع النقود في قبعته الموضوعة أمامه ، وقد لفت نظري هذا المخلوق المشوه ، وعجبت من كمية النقود التي يجمعها في وقت قصير .

ولعلك تعرفه يا واطسون لأنه رجل أحمر الشعر ، يجتاز جرح عميق رأسه من منبت شعره حتى شفته العليا المقلوبة بشكل مخيف .

فقلت له :

– نعم .. أعرفه ، ولكني لا أظنه قادراً على اختطاف نيفيل سنكلير .

فقال هولمز :

– قد يكون عاجزاً لأنّ برجله عرجاً طفيفاً ، ولكنه قوي العضلات لا يشكو من مرض ، وأنت طبيب وتعرف أن ضعف أحد الأعضاء تعوضه قوة في بقية الأعضاء إذا تدرب صاحبها على استخدامها .



– نعم .. هذا صحيح ، وبعد ذلك ؟

– لقد أغمي على المرأة لرؤيتها ملابس زوجها ، فرافقها المفتش برتون إلى بيتها ، وارتكب خطأ فاحشاً بأن قبض على العاجز بعدئذٍ وتركه يتشاور مع صاحب البار ، لذلك لا نملك أدلة كافية للقبض عليه ، وهو ينكر أنه رأى نيفيل سنكلير ، ويفسر وجود الدم على إطار النافذة بأنه جرح إصبعه ، ولا يدري كيف وجدت ملابس السيد سنكلير في غرفته ، وكذلك

اللعبة التركيبية . وحينما انحسر الماء بسبب الجَزْر البحري اكتشفوا ثياب السيد سنكلير .

وماذا تظنهم وجدوا في جيوبها ؟

– لا أدري .

– طبعاً لا تدري لأن في الجيوب خمسمائة قطعة نقدية ، لذلك لم يسحب الجزر البحري الملابس ! وأما الجثة فلعلها غاصت في الماء .

ثم قال وهو يهز رأسه :

– إنها مجموعة من الألغاز ، أفترضُ أن بون قد رمى الجثة من النافذة ، وأراد أن يرمي الثياب أيضاً ، فظنها ستطفو ، فحشا الجيوب بما تسوَّله من النقود ذلك اليوم ، وكان سيفعل الشيء نفسه ببقية الثياب لولا وصول السيدة سنكلير ومعها الشرطة ، ولكن هذا مجرد افتراض .

وقلت له دون اقتناع :

– ولكنه ممكن .

فقال هولمز :

– هذه فرضية مبدئية ، والأمور كالتالي : بون رهن التحقيق يعترض بكل قوته ، ولا شيء يدل على أن له علاقة باختفاء سنكلير ، ولكن ما أريد معرفته هو ما كان يفعله رجل أعمال مثل سنكلير في هذه المحششة ؟ لم أواجه في حياتيّ قضية في بساطة هذه القضية ، ولكنها تطرح تساؤلات كثيرة لا أجد أجوبتها .. ها نحن وصلنا إلى بيت السيدة سنكلير ، وليس لدي ما أقوله لها .

– ولكن لِمَ لا تقوم بتحرياتك في لندن ؟

– لأن هناك كثيراً من الأمور ينبغي اكتشافها هنا ، ويسعدني أن تكون معي لتشد من عزيمتي لمواجهة هذه المرأة التعيسة .

وما إن وصلنا إلى مدخل الفيلا حتى انفتح الباب وظهرت على عتبته امرأة شقراء ، وما إن سمعت خطواتنا حتى هتفت :

– هل من جديد ؟

ولمحت في الظلام شخصين ، فظنّتني زوجها ، ولكنها تحسرت حين تبينتني وقالت :

– لا أخبار جديدة ؟

فقال هولمز :

– لا ؟

– أخبار سيئة إذاً ؟

– لا .. الأمور على حالها .

ودخلنا القاعة ، فعرّف السيدة سنكلير بي ، فقالت السيدة مرحبة وابتسامة حزينة على شفتيها :

– مرحباً بك يا دكتور ! واعذرني لأن حالتي النفسية لا تسمح لي بالعناية بك كما ينبغي .

وبعد استراحة قصيرة التفتت إلى هولمز وقالت له :

– سأطرح عليك سؤالاً ، فأرجو أن تجيب بصراحة مطلقة ولا تُخْفِ عني شيئاً .

– عن أي شيء ؟

– هل أنت موقن بأن زوجي ما يزال على قيد الحياة ؟

فتردد هولمز والحرج باد على ملامحه ، ثم قال :

– لا أظنه على قيد الحياة .

– هل قُتل ؟

– لا أدري ، وهذا محتمل .

– ومتى مات ؟

– الاثنين .

فقالت السيدة سنكلير :

– كيف تفسر إذاً وصول رسالة منه إليّ هذا الصباح ؟

فوثب هولمز من كرسيه كأنما لدغته عقرب وصاح :

– رسالة هذا الصباح ؟

– ها هي .. اقرأها بنفسك .

واختطف هولمز الرسالة من يدها وهو يتمتم " عفواً " ، وبسطها تحت المصباح ، فانحنيتُ عليها لأقرأها معه ، وكانت داخل ظرف من نوعية سيئة ، مرسلة من (كرافسند) هذا الصباح بالذات .

فقال هولمز :

– لا أظن الكتابة على الظرف بخط زوجك !

– لا .. ولكن الرسالة بخط يده .

فقال هولمز :

– إن الذي كتب الرسالة لا يعرف عنوانك ..

– وكيف عرفت ؟

– لأن اسمك مكتوب بحبر مختلف عن العنوان ، فهو لا يعرفه ، ولكن هل أنت متأكدة أن الرسالة بخط يده .

– بلا شك .. فهذه كتابته حين يكون مستعجلاً .

وكان مضمونها كالتالي :

" يا عزيزتي ، لا تقلقي ، فكل شيء على ما يرام ، وهذا خطأ جسيم يلزمه الوقت لإصلاحه ، اصبري !

نيفيل "

قال هولمز :

– قد تكون الرسالة كتبت يوم الاثنين وأرسلت اليوم فقط ، وما بينهما جرت أحداث كثيرة .

فقالت المرأة :

– أنا واثقة من حياته .. إنه لم يمت ، إن حدسي الداخلي لا يخيب ، يوم الاثنين قبل أن يذهب إلى عمله جرح إصبعه

وكنت في غرفة ثانية ، فأسرعت إليه لأطمئن عليه دون أن أراه ، قلبُ المحب دليلُه .

فقال هولمز :

– علمتني التجارب أن حدس المرأة أقوى من التأمل الفكري أحياناً ، ولكني لا أفهم السبب الذي يمنع زوجك من الرجوع إلى بيته إذا كان حياً !

– ألا يمكن أن يكون سجيناً ؟

– ولكنك رأيته آخر مرة من النافذة يشير إليك وينادي ، فقد يكون نداؤه استغاثة أو تعجباً أو دهشة ، من يدري ؟ ! وحين صعدت إلى الغرفة لم يكن فيها أحد .

– نعم .. إلا ذلك العاجز المشوه .

– ألم يخطر ببالك أن زوجك يدخن الأفيون مثلاً ؟

– أبداً .. مستحيل .

فقال هولمز :

– حسناً ، يجب أن أبدأ كل شيء من الصفر ، سنأكل الآن شيئاً ثم ننام لأن نهار الغد سيكون طويلاً .

كنت متعباً فاستلقيت على السرير ، وقبل أن أنام رأيت هولمز في ثياب نومه وقد جلس فوق الكنبة وبيده غليونه ، وقد عضّ على شفتيه يتأمل وكأنه غائب عن الوجود .

استيقظت من الغد والشمس قد أرسلت أشعتها من خلال الستائر ، فقال :

– هل استيقظت يا واطسون ؟ سنقوم بجولة بالعربة ، سأنتظرك أمام المدخل .

ولمحت في صوته لهجة الرضا ، ولم يعد ذلك الرجل المتوتر الذي يتلمس طريقه ولا يجده ، كما كان بالأمس .

وحين ركبنا العربة قال لي بصوت مرح :

– سأجرب فرضية خطرت لي هذا المساء ، ولعلها مفتاح اللغز .

– وأين وجدت هذا المفتاح ؟

فأجابني جاداً :

– في الحمّام .. وقد وضعته في حقيبتي ، هيا لنرى إن كان المفتاح يلائم ذلك القفل .

كان الطريق إلى لندن غاصاً بالعربات ، والشمس تداعب أسطحة المنازل التي ما تزال غارقة في النوم ، وقال هولمز وهو يضرب الحصان بسوطه :

– أعترف لك بأنها قضية ممتعة ، وقد بدأت أضل طريقي في متاهاتها ، لولا أني توصلت إلى الحل ، صحيح أني وصلت بعد عناء ، ولكن هذا خير من ألا أجده على الإطلاق .

كانت الساعة حوالي الخامسة والربع حين اجتزنا جسر (واترلو) ثم دخلنا (بوستريت) ، وتوقف هولمز أمام مركز الشرطة ، وكان معروفاً لديهم ، فسأل الحرس :

– من الضابط المناوب ؟

– المفتش (برادستريت) يا سيد هولمز .

وسرعان ما هبط الدرج رجل طويل القامة عريض الكتفين ، فحيّاه هولمز وسأله :

– هل يمكن أن أقول لك كلمة على انفراد ؟

– طبعاً .. يا سيد هولمز ، تفضل إلى مكتبي .

ودخلنا مكتبه ، وهو حجرة بسيطة ليس فيها سوى طاولة وعدّة كراسي ، وهاتف معلق بجانب الحائط ، وسأل المفتش :

– أي خدمة يا سيد هولمز ؟

– تتعلق القضية بهذا المتسول المدعو (بون) ، المتهم بقضية اختفاء نيفيل سنكلير .

– نعم ، إنه في حجرة التوقيف بانتظار التحقيق .

– وهل هو هادئ في سجنه ؟

– نعم .. إنه لا يكاد يتحرك من مكانه ، ولكنه يرفض الاغتسال مع أنه وسخ كالخنـــزير .

– غريب .. وما السبب يا ترى ؟

– لا نعرف ، قد يغسل يديه من حين إلى آخر ، وسوف أضطر إلى إجباره على الاستحمام ، إذا رغبت في رؤيته فسوف تتأكد من كلامي .

– نعم أريد رؤيته .

– حسناً .. اترك حقيبتك هنا فلن يمسها أحد .

– لا .. أفضل أن آخذها معي .

- كما تشاء .

وهبطنا الدرج إلى ممر طويل على جانبيه حجرات الحجز الاحتياطي ، وفتح براد ستريت كوّة في الباب ونظر إلى الداخل ، وقال :

- انظر إليه ، إنه ما يزال نائماً .

كان المتسول راقداً على ظهره وسخ الملابس وأثر الجرح يمتد من منبت شعر رأسه إلى خدّه ، وقد انشمرت شفته العليا عن ثلاث أسنان صفراء ، فأحسست بالشفقة على هذا الرجل .

قال المفتش هازئاً :

- يا له من فتى وسيم !

فقال هولمز :

- إنه بحاجة إلى حمام ، وقد فكّرت بذلك ، وجلبت معي ما يلزمه .

ثم فتح هولمز حقيبته وأخرج إسفنجة حمام كبيرة ، فارتفع ضحك المفتش عالياً يتردد في الحجرات :

– يا لك من رجل مرح يا سيد هولمز .

قال هولمز وهو يبتسم :

– أرجوك أن تفتح الحجرة الآن دون ضوضاء ، وسوف نجعله أكثر وسامة مما هو عليه الآن .

وأدار المفتش المفتاح بهدوء ، ودخلنا بخطا وئيدة ، فتحرك الرجل في فراشه ثم عاد إلى شخيره .

غمس هولمز الإسفنجة في سطل الماء ، وفرك بها وجه الرجل بقوة ، فنهض مذعوراً .

قال هولمز بارتياح :

– اسمحوا لي أن أقدم إليكم الآن السيد نيفيل سنكلير من منطقة (لي) مقاطعة (كنت) !

لم أشهد في حياتي رجلاً يتحول هذا التحول المتناقض . فقد زال عن وجهه لون التراب واختفى جرحه ، وكذلك شفته المقلوبة . وجذب هولمز الشعر المستعار عن رأسه ، فإذا هو شاب حسن الملامح ، لحيته غير حليقة طبعاً ، ولكنه مختلف تماماً عن المتسول بون .

وهتف المفتش :

– ولكنه .. الرجل الذي نبحث عنه .. عندي صورته !

وتكلم نيفيل أخيراً وقال :

– حسناً .. لقد وقعتُ .. ولكن ما هي التهمة الموجهة إليَّ ؟

وصاح المفتش :

– أنت موقوف بتهمة .. ولكن ما هي تهمته حقاً ؟ منذ خمس وعشرين سنة لم أواجه قضية مثل هذه .

فقال نيفيل :

– لم أرتكب أي جريمة كما أظن .

فأجابه هولمز :

– لا .. ولكنك ارتكبت خطأً جسيماً حين أخفيت حقيقة عملك عن زوجتك .

– ليست زوجتي فقط ، بل الأولاد أيضاً ! آه .. يا رب ماذا سأفعل بهذه الفضيحة ؟



وأسند رأسه إلى كتفيه ، فجلس هولمز بجانبه وقد وضع ذراعه حول كتفه وقال :

– أرى أن تترك القضية بين يدي المفتش ، وسوف يقدم تقريره إلى رؤسائه ليؤكد لهم انتفاء التهمة ، وعدم وجود جريمة ، ولعله يتكرم عليك فلا يطلع الصحافة على مجريات القضية .

فقال المفتش بشهامة :

– نعم .. هذا ممكن .. ولكن على شرط أن تحكي لي قصتك كلها .

قال نيفيل :

– لا أدري كيف أشكركم .. فقد آثرت السجن على أن يطّلع أولادي على حقيقة أمري ، وإليكم حكايتي :

لقد تلقيت تعليماً عالياً ، وتجولت في أوروبا ، واشتغلت في التمثيل المسرحي قبل أن أحترف الصحافة في إحدى جرائد لندن . وذات يوم طلب رئيس التحرير مني أن أقوم بإجراء تحقيق حول مهنة التسول في لندن ، ووجدت أن خير وسيلة

لمعرفة حقيقة هذه المهنة التنكر في زي متسول ، وساعدني على ذلك إتقاني للتنكر حين اشتغلت في التمثيل ، وقد رأيتم موهبتي في التنكر وإتقاني لدور المتسول .

وجلست من أجل كتابة التحقيق في شارع مزدحم ، واختفيت وراء مهنة بائع الكبريت ، فلم يشتر مني أحد علبة كبريت واحدة ، ولكن أهل الإحسان رموا لي بقطع نقدية مقدارها عدّة جنيهات خلال ساعات .

كتبت هذا التحقيق للجريدة ونسيت المسألة كلها .

ولكن حدث ذات يوم أن ألّمت ضائقة مالية بأحد زملائي ، واحتاج إلى خمسة وعشرين جنيهاً لسداد دينه ، واستطعنا تأجيل الدين أسبوعين ، فأخذتُ إجازة من الجريدة وبدأت أتسول في شوارع لندن ، وما إن انقضت إجازتيَ حتى سددت دين زميلي ، وبقي معي عدة جنيهات أخرى ، ويمكنكم أن تتصوروا خيبتي وأنا أفكر بأن الصحفي يربح جنيهين أسبوعياً ، على حين يستطيع المتسول أن يربحهما في يوم

واحد ، فتغلب صوت المال على صوت الضمير ، فاستقلت من الصحافة واحترفت التسول .

ولم أطلع أحداً على هذا السر سوى صاحب " البار الذهبي " لأني استأجرت لديه غرفة .

بعد مدة من الزمن أصبحت متسولاً مشهوراً يعرف باسم " ذي الشفة المقلوبة " .

وغدوت جزءاً من ديكور لندن نفسها ، ولا أزعم أن المتسولين من كبار الأغنياء ، ولكني جمعت ثروة طائلة ، فاشتريت منــزلاً فخماً وتزوجت ، واستثمرت أموالي في مشاريع عديدة ، ولم تكن زوجتي تعرف شيئاً عني ، فهي تظنني أعمل في لندن وحسب .

وتستطيعون أن تدركوا دهشتي حينما أبصرتني زوجتي من نافذة البار الذهبي ، فصرخت صرخة ذعر وخوف ، وتراجعت للوراء ، فطلبتُ من صاحب البار أن لا يسمح لها بالدخول حتى أرتدي ملابسي التنكرية .

وجمعت ملابسي ورميتها مع النقود الموجودة فيها من النافذة ، ولم يكن أمامي الوقت الكافي للتخلص منها كلها .

وكنت قد جرحت إصبعي في البيت صباحاً ، فحين أغلقت النافذة سال الدم على حافتها ، وجاءت زوجتي ومعها دورية الشرطة ، فرأت ما بقي من ملابسي ، ولم تتعرف عليّ حتى زوجتي .. وآثرت أن أتّهمَ بقتل نيفيل سنكلير على أن تُكتشف حقيقة أمري .

وسأله هولمز :

– والرسالة ما حكايتها ؟

– طلبت من صاحب البار أن يرسلها ، فتأخر لأن الشرطة كانت تراقبه ..

وتدخل المفتش قائلاً : هذه قضية عجيبة ، ولكن إذا أردنا لنيفيل سنكلير أن يعود إلى الظهور فيجب أن يختفي المتسول بون ..

قال نيفيل : هذا وعد صادق .. سيختفي إلى الأبد .

في طريق العودة سألت هولمز عن الدليل الذي أدى به إلى اكتشاف هذا السر ، فقال : التأمل المنطقي يا عزيزي واطسون ! .

****
******
*

الشريط المُرقَّط



كنت قبل زواجي أسكن مع شرلوك هولمز في شقة واحدة ، وتقوم على خدمتنا امرأة عجوز تدعى السيدة هدسون .

وقد اعتاد هولمز أن ينام متأخراً ولا ينهض باكراً ، لذلك شعرت بالدهشة حينما طرق باب غرفتي في ساعة مبكرة ، وأيقظني من نومي قائلاً :

– اعذرني إن أيقظتك من نومك باكراً يا واطسون ، ولكنه المصير المشترك ، إذ أن السيدة هدسون قد أوقِظَتْ ، فأيقظَتْني ، وجئت أوقظُكَ .

فقلت وأنا أفرك عيني :

– ماذا حدث ؟ هل اشتعلت النار في المنـــزل ؟

– لا .. ولكن جاءتني زبونة شابة وهي تنتظرني في القاعة ، وحين يستيقظ الشبان مبكراً ، فمعنى ذلك أن القضية

خطرة ، ولم أشأ أن أفوّت عليك متعة المشاركة في هذه القضية منذ بدايتها .. فأيقظتك .

– هذا لطف منك .. إني قادم .

والحق أن هولمز يعرف شغفي بالقضايا التي يعالجها ، وإعجابي بمنطقه العلمي وتفكيره السديد ، فارتديت ثيابي على عجل ولحقت به إلى قاعة الاستقبال .

كانت في القاعة فتاة شابة مرتدية ثياباً سوداء ، وقد غطت وجهها بشبكة حريرية ، فنهضتْ لدخولنا ، فقال لها هولمز :

– صباح الخير يا سيدتي .. إني شرلوك هولمز وهذا مساعدي وصديقي الدكتور واطسون ، وتستطيعين الكلام أمامه على راحتك . آه .. أرى أن السيدة هدسون قد أشعلت المدفأة ، وسوف أناديها لتغلي لنا بعض الشاي ، فأنت تشعرين بالبرد كما أرى .

فقالت :

– لا يا سيد هولمز .. لا أرتجف من البرد ، بل من الخوف .

وكان يبدو عليها الذعر فعلاً ، بحركاتها العشوائية ونظراتها الحائرة ، وهي لم تتجاوز الثلاثين من العمر ، ولكن شعرها قد انتشر فيه الشيب ، فبدت أكبر من سنها الحقيقية ، إنها امرأة خائرة القوى ..

فقال لها هولمز بلهجة حانية :

– لا تخافي .. سنحل هذه القضية بأسرع ما يمكن .. إني واثق من ذلك ، هل جئت بالقطار هذا الصباح ؟

– وكيف عرفت ؟ هل رأيتني من قبل ؟

– لا أعرفك ، ولكني أرى أن بطاقة العودة يطل رأسها من حقيبة يدك .

فقالت المرأة :

– نعم .. لقد غادرت منـــزلي الساعة السادسة ، وركبت القطار ثم توجهت من المحطة مباشرة .. ليس لدي أحد أفضي إليه بهمومي ، وقد حدثتني السيدة (فارنتوش) عنك وعن مساعدتك لها ، فهل تلبي طلبي وتمدّ إليّ يد العون ؟ ولكني

لا أملك مالاً في الوقت الحاضر .. ولكني سأتزوج خلال شهر أو شهرين ، ولن أكون ناكرة للمعروف !

فتوجه هولمز نحو مصنفاته وبحث فيها :

– فارنتوش .. فارنتوش .. نعم .. إنها قضية مجوهرات ، سنهتم بقضيتك مثل اهتمامنا بقضية السيدة فارنتوش وأكثر ، وأما أتعابي فأترك لك أمر دفعها حين يتيسر لك ذلك .. والآن قصي بوضوح ما يشغل بالك .

قالت المرأة :

– المخيف في حالتي يا سيد هولمز أني لا أعرف سبب خوفي ، وتحوم شكوكي حول تفاصيل دقيقة لا يمكن لأحد إدراكها سواي ، حتى أعز الناس لدي وأحبهم يظن أنها أوهام امرأة ، وقد قيل لي إنك رجل إنساني متفهم لآلام الناس ، هل هذا صحيح ؟

– حسناً .. إني أستمع إليك .

– إني أدعى (هيلين ستونر) ، وأعيش مع زوج أمي المنحدر من عائلة إنكليزية عريقة ، هي عائلة (روالوت) من منطقة (سوري) .

– هذا اسم معروف .

– بعد أربعة أجيال فقدت هذه الأسرة ممتلكاتها كلها ، ولم يبق لها في مطلع القرن التاسع عشر سوى هكتارات من الأراضي ، ومنـــزل قديم عمره مائتا عام كأنه الأطلال ، وهي مرهونة كلها ، وقد حاول زوج أمي أن يبتعد عن حياة الوهم التي عاشها أبوه ، فاقترض بعض المال من أخواله ودرس الطب واستقر في كلكوتا بالهند ، وسارت أموره على أحسن حال لأنه طبيب بارع ، ولكنه مولع بضرب الخدم الهنود ، وقد انهال بالضرب على أحدهم ذات يوم حتى قتله ، فحكم عليه بالسجن مدة طويلة ، وحين خرج منه كان حطام إنسان .

في الهند تزوج الدكتور (روالوت) أمي التي كانت أرملة ستونر القائد العام لقوات المدفعية في البنغال ، ولي أخت توأم تدعى جولي ، ولم يكن عمرها أكثر من عامين حينما تزوجت

أمي الدكتور روالوت ، وكانت أمي ميسورة الحال ، بل ثرية لأن دخلها يتجاوز الألف جنيه سنوياً .

وشاءت الأقدار أن تموت في حادثة قطار منذ ثماني سنوات ، وقد أوصت بثروها إلى زوجها مادمنا نعيش معه ، ما عدا مبلغاً من المال يدفعه إلينا سنوياً استعداداً لزواجنا .

ولم يشأ الدكتور روالوت أن يستقر في لندن كما قرر أولاً ، فذهبنا إلى الإقامة في مسكن أجداده في (ستوك موران) ، غير خائفتين من غدر الزمان ، لأن والدتنا تركت لنا ما يكفي من المال .

وسرعان ما تبدلت شخصية الدكتور روالوت تماماً ، فلم يعقد صداقة مع جيرانه الذين ابتهجوا لقدوم أحد أفراد هذه العائلة العريقة إلى منطقتهم ، وأغلق الباب على نفسه لئلا يقابل أحداً ، وإذا خرج فلكي يتشاجر مع الناس ، والظاهر أنها طبيعة متوارثة في العائلة ، وقد اشتدت حدتها بإقامته الطويلة في الهند ، وقضائه أعواماً في السجن ، فأصبح يثير الرعب في القرية لسوء خلقه ، حتى إنه رمى الحداد في النهر ودفعتُ إليه

ما أملك لئلا يقاضيه . وأما أصدقاؤه فهم الغجر الذين سمح لهم بالإقامة في أراضيه المهملة ، فيزورهم ويقضي نهاية الأسبوع معهم في ترحالهم . وزاد الأمر سوءاً ولعُه بالحيوانات المتوحشة ، فكان يراسل أحد أصدقائه في الهند ، فيبعث إليه من حين إلى آخر حيوانات حية ، ويوجد في حديقته الآن نمر وغوريلا ، ولا أدري أيهما أشد فتكاً من الآخر ، وقد أطلقهما في الحديقة يتجولان مما أثار الرعب في القرية كلها .

وتستطيع يا سيد هولمز أن تتصور حياتنا بعدئذٍ ، فالخدم يهربون بعد أسبوع ، مما يضطرنا إلى القيام وحدنا بأعباء المنـــزل الفسيح . وحين توفيت أختي لم تكن قد تجاوزت الثلاثين ، ولكن شعرها أكثر شيباً من شعري الآن .

– هل توفيت أختك ؟

– منذ سنتين ، وهذا موضوع حديثي الأساسي ، إذ أن لنا خالة عزباء تسكن منطقة (هارو) ، فكنا نزورها من حين إلى آخر ، وذات يوم تعرفت أختي لديها إلى ضابط في البحرية ،

وأُعلنت خطبتُهما ، وحين علم زوج أمي بالأمر لم يعترض بل أظهر ابتهاجه ، ولكن أختي توفيت قبل أسبوعين منذ زواجها .

وكان هولمز يصغي إليها مغمض العينين ، ففتحهما فجأة وقال :

– اذكري لي التفاصيل ، أرجوك .

– سأحاول .. فالمشهد ما يزال محفوراً في ذاكرتي .

قلت لك إن المنـــزل قديم ، فلم نكن نشغل سوى طابقه الأرضي ، حيث انتشرت الغرف الثلاث حول الممر دون أن يُفضي بعضها إلى بعض .. هل تتابعني ؟

– تماماً ، أكملي !

– وهذه الغرف تطل على الحديقة . وذلك المساء نفسه ذهب الدكتور إلى غرفته ، ولكنه لم ينم لأننا كنّا نشم رائحة سيكاره القوية ، ولبثت أختي معي ، وتحادثنا طويلاً حول زواجها ، ثم تركتني حوالي الحادية عشرة ، وقبل أن تغلق الباب سألتني :

– هل سمعت في الليل صفيراً يا هيلين ؟

– أي صفير ؟

– صفيراً خافتاً .. في المنــزل أو حوله حوالي الثالثة صباحاً ، لعله صوت شخيرك .

– لا ، فأنا لا أشخر .

– كيف لم تسمعيه إذاً ؟

– لعله أحد هؤلاء الغجر المخيمين تحت الأشجار .

– فكيف لم تسمعيه أنت أيضاً ؟

– لأن نومك أخف من نومي ..

وانصرفت بعدئذٍ وسمعت صوت المفتاح يدور في باب غرفتها .

فقاطعها هولمز :

– هل من عادتك إقفال باب غرفتك ؟

– نعم .. كل مساء .

– وما السبب ؟

– لقد حدثتك عن الغوريلا والنمر ، فنحن نخاف منهما .

– نعم .. هذا صحيح تفضلي .. !

– كانت ليلة عاصفة لم أذق فيها طعم النوم لقصف الرعد ولمعان البرق . وفجأة سمعت صوتاً شق سكون الليل ، إنه صوت أختي ، ففتحت الباب ، فخُيّل إليّ أني أسمع فحيحاً أو صفيراً خافتاً كما وصفته أختي ، وبعد لحظة سمعت صوت شيء معدني كأنه سلسلة تسقط على الأرض ، أو أداة ما شبيهة بها ، كنت جامدة في الممر من الهلع ، وإذا بباب أختي يفتح بهدوء ورأيتها تخرج شاحبة اللون ، وهي تترنح يميناً وشمالاً كأنها فقدت توازنها ، فسارعت إليها أسندها ، فانهارت على الأرض بين يدي ، وكانت ترتجف بشكل رهيب ، وجسدها ملويٌّ إلى الخلف ، كأنها تتألم ألماً شديداً ، فانحنيت عليها وأظنها لم تعرفني ، ولكنها نظرت إليّ هامسة :

" آه .. يا رب ! هيلين إنه الشريط المرقّط .. "

ولعلها تريد أن تقول شيئاً آخر ، وهي تشير بيدها إلى غرفة زوج أمي ، وفار الزبد من فمها وانقلبت عيناها ، فهرعتُ إلى غرفة زوج أمي وطرقته بعنف ، فخرج ملهوفاً ، وجرى إلى أختي وحاول أن يسقيها بعض الماء ، ولكنها فقدت

الوعي ، ثم توفيت بعد لحظات دون أن تستعيد وعيها ، وهكذا فقدتُ أختي العزيزة .

سألها هولمز :

– هل أنت واثقة من أنك سمعت ذلك الفحيح أو الصفير الخافت وذلك الصوت المعدني ؟ هل تعرفين ما مصدره ؟

– هذا ما طلبه مني مفتش الشرطة .. ولعلني قد توهمته وسط هبوب العاصفة .. ولكني واثقة من سماعه .

– ماذا كانت ترتدي أختك ؟

– كانت ترتدي فستان نومها ، وبيدها علبة كبريت ، وكان ما يزال عود الكبريت مشتعلاً بيدها الأخرى .

– هذا مهمٌّ ، لأن معناه أنها حين استيقظت على الضجة أشعلت عود الكبريت لتعرف ما هو . ما رأي مفتش الشرطة ؟



– لقد قام بتحقيق جاد بسبب السمعة السيئة لزوج أمي ، ولكنه لم يستطع تحديد سبب الموت بيقين تام ، وقد شهدتُ بأن النوافذ مغلقة من الداخل ، وأني سمعتها تغلق غرفتها بالمفتاح ، ولم نجد شقاً في الحائط أو الأرضية ، فثبت بالدليل أن أختي

لقيت مصرعها وهي في الغرفة وحدها ، ولم نجد آثار عنف على جسدها .

– وهل توجهت أبحاث المفتش إلى السم ؟

– بالضبط .. ولكن التحاليل لم تؤد إلى شيء .

فقال هولمز :

– هذا غريب ، وما سبب موت أختك في رأيك .

– أظنها ماتت من الرعب ، ولكن ما الشيء الذي أرعبها إلى هذه الدرجة ؟ لست أدري .

– ماذا كانت تعني بقولها " الشريط المرقّط " ؟

– فكرت طويلاً في معناها ، وقلت لنفسي لعلها تقصد المنديل المرقّط الذي يضعه الغجر على رؤوسهم .

فهزّ هولمز رأسه ولم يظهر عليه الاقتناع ، ثم قال لها :

– تابعي .. ماذا حدث بعدئذٍ ؟

– انقضت سنتان ، فتقدم لخطبتي صديق أعرفه منذ زمن بعيد ، ولم يعترض زوج أمي على زواجنا في الربيع القادم .

وقبل البارحة اضطررت إلى ترك غرفتي لأن العمال هدموا الجناح الشرقي لإصلاحه ، ونمت في غرفة أختي المتوفاة ، والبارحة أحسست بالرعب الشديد لسماعي الصفيرَ الخافتَ نفسه الذي وصفتُه لك ، فنهضت من سريري وأشعلت المصباح ، فلم أجد شيئاً ، فارتديت ملابسي وركبت عربة إلى محطة القطار وجئت إليك .

فأمسك هولمز بمعصمها قائلاً :

– ولكنك تتسترين على زوج أمك ..

– وكيف ذلك ؟

فكشف معصمها فإذا عليه أصابع زرقاء وقال :

– إنه يسيء معاملتك .

– نعم .. إنه رجل قاسي القلب .

ولم يجبها وجعل يحدق في النار مفكراً ، ثم قال :

– هذه قضية معقدة حقاً ، ولا بد من التحقّق من بعض التفاصيل فيها ، ولكن الوقت قصير ، لا بد من زيارة ستوك

موران اليوم ، ورؤية الغرف دون أن يدري زوج أمك ، فهل هذا ممكن ؟

– نعم .. لأنه ذاهب اليوم إلى لندن وسوف يتغيب النهار كله ، ولدينا خادمة منذ أسابيع ، ولكنها عجوز بلهاء ، وأستطيع إبعادها بسهولة ..

– ومتى سترجعين إلى المنـــزل ؟

– سأستقل قطار الثانية عشرة ..

– حسناً .. سنستقل نحن القطار التالي عليه .

– أشكرك يا سيد هولمز .. ولكن هل ستساعدني حقاً ؟

– لا ريب في ذلك .. اطمئني ، إلى اللقاء .

فأحكمت هيلين ستونر الشبكة الحريرية على وجهها ومضت ، فقلت له :

– ما رأيك يا هولمز ؟

– إنها قضية غامضة ومحزنة .

– ولكن الفتاة تؤكد أن أختها كانت وحدها .

– والصفير أو الفحيح يا واطسون ؟ وعبارة الشريط المرقّط ؟ يجب أن نربط بين الصفير الليلي بوجود جماعة الغجر في الحديقة ، مع مصلحة زوج أمها في ألا تتزوج لئلا يفقد ثروته ، أضف إلى ذلك الصوت المعدني الذي قد يكون صوت قضيب من الحديد انتزع ثم أعيد إلى مكانه ، وأظن أن حل القضية يدور حول هذه العناصر .

– ولكن ما عسى الغجر يفعلون ؟

– ليس لدي أي فكرة بعد ، ولكننا سنذهب بعد الظهر لنرى تطابق الفرضية مع الواقع .. ما هذا ؟

وفجأة انفتح الباب ودخل رجل ضخم ، فوقف والشرر يتطاير من عينيه . كان أصفر الوجه ملأته التجاعيد ، وعيناه غائرتان تتحركان في كل اتجاه ، وأنفه معقوف كأنه منقار طائر جارح ، ويحيط بذلك كله تعبيرٌ من الدهاء والشر لا يمكن وصفه ، وكان يرتدي ملابس خليطاً من ثياب الفلاحين وأهل المدينة ، ويمسك بيده سوطاً متيناً .

فقال العملاق بصوت قوي :

– من منكما المدعو هولمز ؟

فقال صديقي بهدوء :

– أنا هو يا سيدي ، فهل أتشرف بمعرفة اسمك وسبب زيارتك ؟

– إني الدكتور (كريمسباي روالوت) من (ستون موران) .

– حقاً ؟ تشرفنا .

– لقد خرجت ابنة زوجتي من هنا ، فماذا تريد ؟

فقال هولمز بلهجة رزينة :

– ألا تظن أن النهار مشرق بالنسبة لهذا الفصل .

فزمجر الرجل :

– ماذا تريد ؟

فتابع هولمز سخريته :

– هل تظن أن موسم التفاح سيكون جيداً هذا العام ؟

فصاح الرجل بصوت متقطع :

– لا تريد أن تجيبني .. أعرفك فأنت شِرلوك هولمز المحقق الجنائي الجاسوس .. عميل الشرطة .

فابتسم هولمز راضياً عن نفسه وقال :

– لقد كانت محادثة ممتعة ومثيرة يا دكتور ، ولكني أرجوك أن تغلق الباب قبل أن تذهب لأني أكره التيارات الهوائية !

– سأذهب حين أريد .. ولكني أحذرك بأني أكره التدخل في شؤوني ، إني خطر إذا هوجمت .

وتقدم خطوة إلى الأمام وأمسك بِمحْراك المدفأة الحديدي ولواه بسهولة ، وصاح :

– ابتعد عن طريقي وإلا ..

فقال هولمز :

– أراك إنساناً شديد التهذيب ، قوي العضلات ..

وأمسك بالمحراك ورده مستقيماً كما كان بحركة واحدة ، فرماه الرجل بنظرة شريرة ، وغادر الغرفة مسرعاً .

وحين بقينا وحدنا قال هولمز :

– لا أريد لهذه الفتاة أن تلقى المتاعب بسببي ، أحتاج إلى بعض المعلومات ، وسوف أحصل عليها ثم أعود .

ورجع هولمز بعد ساعة ، فقال :

– لقد اطلعت على وصية أم هيلين ، إن أموالها لم تعد طائلة بعد انهيار العائدات الزراعية ، وإذا تزوجت الفتاتان فسوف يواجه زوج أمهما الإفلاس .

وقد تخلص من الأولى ، وأخشى على الثانية من شره ، لنسرع إلى ستوك موران ، ولا تنس أن تحمل مسدسك معك ، لأن من يلوي محراك المدفأة يحتاج إلى شيء مختلف عن البراهين المنطقية .

وركبنا القطار ، ثم استأجرنا عربة من المحطة التي تبعد حوالي ثمانية كيلو مترات عن ستوك موران ، فمشت بنا عبر الحقول المزهرة ، وكان النهار جميلاً يتناقض مع البناء المتداعي الذي رأيناه قائماً فوق تلة مرتفعة . وسأل هولمز السائق عن ستوك موران فقال :

- إن المزرعة أمامنا ، والأفضل أن تسير عبر الحقول لتصل إليها .

فنـــزلنا من العربة ودفعنا للسائق أجرته فعاد أدراجه .

صعدنا التلة إلى المزرعة ، فقال هولمز وقد رأى هيلين :

- صباح الخير يا آنسة هيلين .. لقد وفينا بوعدنا .

فأسرعت الفتاة إلى لقائنا وقد ظهرت بشائر الفرحة على وجهها ، وصاحت :

- كنت أنتظركما بفارغ الصبر ، وقد غادر زوج أمي المزرعة ، ولن يعود إلا مساء .

فقال هولمز بلهجة مخادعة :

- لقد تشرفنا بمعرفته .

وحكى لها بكلمات ما حدث هذا الصباح ، فاصفر وجهها وقالت :

- إنه ماكر .. ولم أنتبه إلى أنه يراقبني .. ماذا سيقول لي بعد عودته ؟

– سيكون حذراً ، أغلقي هذا المساء غرفتك بعناية ، وإذا خفت أن يضربك أخذناك إلى عمتك ، ولكن علينا ألا نضيّع الوقت الآن ، أين الغرف ؟

كان البناء متداعياً ، وقد نصبت الصقالات لترميمه ، ولكننا لم نجد للعمال أثراً . ومشى هولمز عبر أطلال الحديقة ، وتأمل المنـــزل من الخارج وقال :

– أظن أن هذه نافذة الغرفة التي تنامين فيها ، وفي الوسط غرفة أختك ، وهذه الأخيرة غرفة زوج أمك ؟

– تماماً .. ولكني قلت لك إني أشغل الآن الغرفة الوسطى .

– بسبب الترميم ، ولكن هل هذا الترميم ضروري فعلاً ؟

– لا .. وأظن زوج أمي اخترعه لكي يضطرني إلى تبديل غرفتي .

– كلام صائب ، وأظن أن الدهليز يمرّ أمام الغرف ، ولها نوافذ تطل عليه .

– نعم .. ولكنها صغيرة ضيقة لا يستطيع أحد الدخول منها .

– حسناً ، ادخلي الآن غرفتك ، وأرجو أن تغلقي أبواب النوافذ الخشبية .

فدخلت هيلين وأغلقتها ، وحاول هولمز أن يفتحها من الخارج فلم يقدر ، ولم يجد شقاً يُدخلُ منه سكيناً يدفع به قضيب الحديد الذي يعترضها من الداخل .

فقال هولمز وهو يحكّ ذقنه :

– حسناً .. لا يمكن فتحها من الخارج .. إن فرضيتي أصيبت بضربة عنيفة ، لندخل الآن .

لم يهتم هولمز بغرفة هيلين بل انصرف إلى الغرفة التي كانت تشغلها المرحومة جولي ، وهي غرفة واطئة السقف فيها مدفأة واسعة وسرير ، وطاولة صغيرة بجانب النافذة اليسرى ، وفوق سجادة دائرية الشكل كرسيان من الخشب .

فجلس هولمز على أحد الكرسيّيْن ، وجعل يتأمل الغرفة كأنه يريد أن يحفر تفاصيلها في ذاكرته .

وأشار بعد قليل إلى حبل مجدول يتدلى فوق السر.ر وقال :

– أين نهاية هذا الحبل ؟

– في غرفة الخادمة لاستدعائها .

– وهل هو هنا منذ زمن طويل ؟

– منذ ثلاث أو أربع سنوات .

– وهل طلبت أختك أن يوضع في غرفتها ؟

– لا .. ونحن لا نستخدمه أبداً .. فقد تعودنا أن ندبر أمورنا بنفسنا ، ولا نحتاج إلى الخدم .

فأمسك هولمز بالحبل وجذبه بقوة فلم نسمع صوت الجرس ولم يتحرك الحبل من مكانه ، فقال :

– آه .. إنه جرس زائف .. والحبل مربوط بحلقة فوق فتحة التهوية .

فقالت هيلين :

– لم ألاحظ هذا من قبل .. أمر عجيب .

فقال هولمز :

– د بعاً .. وإني لأتساءل كيف يفكر المهندس المعماري ببناء فتحة تهوية تؤدي إلى الغرفة المجاورة ولا تؤدي إلى الخارج .

– هذه الفتحة أُحدثت مؤخراً .

– لعلها أُحدثت مع حبل الجرس أيضاً .

– نعم .. في الوقت نفسه .

فقال هولمز :

– جرس لا يقرع .. وفتحة تهوية لا فائدة منها ، سأرى الغرفة المجاورة إذا سمحت .

كانت غرفة الدكتور أوسع قليلاً ، ولكن فيها الأثاث البسيط نفسه ، سرير متنقل ، ومكتبة صغيرة من الخشب الأبيض مملوءة بالكتب الطبية ، وكَنَبَة وكرسي خشبي وطاولة مدورة وحقيبة معدنية كبيرة .

وتفحص هولمز الأثاث بعناية ، وقال وهو يلمس الحقيبة المعدنية بقدمه :

– ماذا يوجد بداخلها ؟

– فيها أوراق زوج أمي ، وقد رأيتها مفتوحة منذ سنوات ، وأذكر أن فيها أوراقاً ومصنفات .

– ولا أظن أن فيها مكاناً للقطط .

– قطط ؟ أي قطط ؟ ليس لدينا قط .

– حقاً ؟ وما هذا ؟

وأشار إلى صحفة على الأرض مملوءة بالحليب .

فقالت هيلين :

– فعلاً .. ولكن ليس لدينا قط .. لدينا نمر وغوريلا .

فقال هولمز :

– على كل حال النمر قط كبير . ولكن لا تشبعه صحفة الحليب .



تفحص هولمز الأرضية بمكبرته ، ثم التقط شيئاً وقال :

– ما رأيك بهذا يا واطسون ؟

– إنه رسم كلب .. وفي طرفه أنشوطة ، وما فائدته ؟

فقال هولمز :

– سنعرف فيما بعد .. والآن يا آنسة هيلين .. إن حياتك في خطر ، ولا أريد أن يفاجئنا الرجل هنا ، وقد عزمنا أن نقضي الليلة في غرفتك .. فإذا أقبل المساء تذرعي بصداع لكي تدخلي هذه الغرفة التي تنامين فيها ، وحين يظلم الليل افتحي النافذة وأضيئي المصباح واخفضيه ثلاث مرات ، لأننا سننـــزل في فندق القرية القريب ، ثم غادري هذه الغرفة إلى غرفتك السابقة ، ولا تنسي أن تتركي النافذة مفتوحة لأننا سننام في غرفة أختك ..

فقالت هيلين :

– أظنك تدبر خطة .

– ممكن .. ولا أريد الحديث عنها .

– هل تصدقني إذا قلت لك إن أختي ماتت من الخوف ؟

– لا .. لقد ماتت من شيء ملموس ، سنسعى إلى اكتشافه .. ولكن افعلي ما أوصيتك به حرفياً !

استأجرنا غرفة وقاعة في الطابق الأول من فندق " التاج " وكانت تطل على ستوك موران ، والجانب المسكون من البناء فيه . ومع حلول الظلام رأينا الدكتور يعود إلى الدار ثم يضاء النور في غرفته .

فقال لي هولمز :

– إني أشعر بتأنيب الضمير لأني ورطتك في هذه القضية .

– وهل تحسبني خائفاً من الأخطار ؟ وهل نسيت ما واجهناه معاً ؟ ولكن قل لي إلى أين وصلت تحرياتك ؟

– لقد رأيت بنفسك ما رأيته أنا ..

– نعم ، ولكنك استنتجت شيئاً .. هذا واضح .

– لم أستنتج شيئاً خاصاً ، ولفت انتباهي رسن الكلب هذا ، فما فائدته ؟

– وفتحة التهوية ؟ إنها صغيرة لا تتسع لقبضة اليد .. ولكن ما العجيب فيها ؟

– كنت أتوقع وجودها قبل قدومي إلى ستوك موران .

– كيف ذلك ؟

– ذكرت لنا الفتاة أنها شمّت رائحة السيجار من غرفتها ، وعلمت أن زوج أمها ما يزال مستيقظاً ، مما يدل على وجود فتحة ينفذ منها الدخان ، وأجد كثيراً من المصادفات : فتحة تهوية وحبل جرس وفتاة تموت في سريرها . فقلت :

– وأين الغرابة في هذا ؟

– ألم تتأمل السرير جيداً ؟

– نعم .

– وهل لاحظت شيئاً ؟

– لا .. لم ألاحظ شيئاً .

– إنه مثبت بالأرضية ، ولا يمكن زحزحته من مكانه ، فهل رأيت أسِرَّةً من هذا النوع ؟

– هذا غريب !

– إنه أكثر من غريب يا واطسون ، فالفتاة لا تستطيع إلا أن تنام تحت حبل الجرس المعلق تحت فتحة التهوية .

فقلت بلهجة الخائف :

– هولمز ! لقد بدأت أدرك ما تعني .. ولكن هذا أمر فظيع !

فهزّ رأسه وقال :

– إنه ابتكار مخيف .. فلا حدّ للشراسة الإنسانية .

حوالي التاسعة أُطفئت الأضواء في المنـــزل البعيد وساد الظلام . وبعد ساعتين التمع نور المصباح في النافذة ثلاث مرات ، فهبّ هولمز واقفاً وقال :

– الإشارة .. هيا يا واطسون .. جاء دورنا .

أعلَمْنا صاحب الفندق بأننا سنـــزور صديقاً لنا في الناحية ، ومن المحتمل أن نقضي الليلة عنده ، وخرجنا فإذا الليل بارد والجو كئيب .

لم نجد صعوبة في اجتياز السهل المحيط بالمبنى ، ودخلنا الحديقة التي انهارت أسوارها ، وما كدنا نخطو بضع خطوات حتى رأينا مخلوقاً قزماً شبيهاً بالإنسان يلوّح بيديه وهو يمشي

متمايلاً على جانبيه ، فأمسكت بيد هولمز خائفاً وتشبث بي ، ومرّ بجانبنا دون أن يلتفت إلينا ، وابتعد يجري .

وهمستُ بضحكة مكتومة :

– الغوريلا !

لقد نسينا هواية الدكتور في جمع الحيوانات فأسرعنا قبل أن يتعرف علينا النمر ، ودخلنا الغرفة وأغلق هولمز النافذة ووضع مصباحاً على الطاولة ، فإذا الغرفة كما تركناها .

وقرّب هولمز فمه في أذني وهمس بصوت لا يكاد يسمع :

– يجب ألا تحدث صوتاً وإلا فالموت بانتظارنا ، يجب أن نطفئ المصباح لئلا يُرى نوره من فتحة التهوية ، واجعل مسدسك في متناول يدك .. سأجلس بجانب السرير واجلس أنت على الكرسي ، الصمت أو الموت !

أخرجت مسدسي ووضعته على الطاولة ، وكان هولمز قد جلب معه سوطاً رفيعاً مرناً ، فوضعه على السرير إلى جانب شمعة وعلبة كبريت ، ثم أطفأ المصباح .. ولبثنا في الظلام ، ولن أنسى ما حييت ذلك الانتظار المريع ، إذ كنت لا أسمع تنفس

هولمز وهو قريب مني .. وتناهى إلينا زئير النمر في الحديقة ، ثم تلته دقات ساعة الكنيسة المجاورة ، فمرّ علينا الزمن كأنه دهر طويل ، وتيبست أطرافي وأنا لا أجرؤ على الحركة ، وتوفزت حواسي في الظلام .

وفجأة التمع برق أحمر من جهة فتحة التهوية ثم اختفى ، وشممنا رائحة اشتعال الزيت والمعدن الساخن ، فقد أُضيء القنديل في الغرفة المجاورة ، وسمعت حركة فتهيأتُ للوثوب ، ولكن الوثوب على أي شيء ؟

واشتدت الحركة ، واقشعر شعر جسدي وأنا أسمع صوت فحيح كأنه الماء يغلي على النار ، الصفير في الحجرة .

فنهض هولمز وأشعل عود كبريت ، وبدأ يضرب بسوطه حبل الجرس المتدلي فوق السرير وهو يصيح :

– هل تراه يا واطسون ؟ هل تراه ؟

ولكني لم أر شيئاً ، وحين أشعل هولمز عود الكبريت ارتفع الفحيح وصار أقوى ، ولم أبصر على النور الضئيل ما كان

يضربه بهذا العنف ، وما كنت أرى سوى وجهه الشاحب المليء بالغضب والاشمئزاز .

وتوقف عن الضرب بسوطه وهو يلهث وينظر إلى فتحة التهوية ، فارتفعت من الناحية الثانية من الجدار صرخة هائلة لم أسمع مثلها ، صرخة ألم وخوف وغضب ، تعالت ثم انتهت باختناق المحتَضر .

وصحت :

– ما هذا ؟

فنظر إليّ هولمز ووجه أصفر كالليمون :

– لقد انتهى كل شيء .. هذا أفضل .. احمل مسدسك ولندخل غرفة الدكتور .

وطَرقَ الباب المجاور فلم يَسمعْ شيئاً ، فأدار المقبض وفتح الباب وتبعتُه ومسدسي بيدي ..

كان القنديل على الطاولة يرمي شعاعه النحيل ، والحقيبة المعدنية مفتوحة ، والدكتور روالوت على كرسيه ثابت لا يتحرك ، وعلى ركبتيه رسن الكلب الذي شغل فكري ،

ورأسه ملقى إلى الوراء وعيناه مفتوحتان تحدقان في السقف ، وعلى جبينه شريط أصفر مرقّط ببقع بنية ملتصق به .

فهمس هولمز :

– الشريط .. الشريط المرقّط .

وتقدمت خطوة إلى الأمام ، فتحرك الشريط العجيب على جبين الميت وارتفع طرفه ، فإذا هو رأس أفعى مثلث الشكل .

وهمس لي هولمز :

– أفعى مائية .. أشد أفاعي الهند فتكاً ، ويموت مَنْ تلدغهُ بعد عشر ثوان ، لقد قتل نفسه بنفسه ، لنُرجعْ هذه الأفعى إلى الحقيبة المعدنية .

وأمسك بالرسن ذي الأنشوطة ، وأحكمه على عنق الأفعى ثم انتزعها بجذبة قوية وحملها بعيدة عن جسمه ، ثم رماها في الحقيبة الحديدية وأغلق غطاءها .

* * * * * * * * * * *

كذلك كان موت الدكتور روالوت . وغني عن القول أن الشرطة اعتبرت وفاته حادثاً ، وقد ذهبت الآنسة هيلين إلى بيت عمتها ، وتزوجت بعد ذلك .

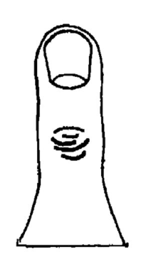
وما بقي عليّ قوله قد سمعته من هولمز ونحن في طريق العودة ، قال هولمز وهو يفكر بعمق :

– لقد سرت في طريق خاطئة حين ربطت ما بين الشريط المرقّط وبين الغجر المقيمين في الحقول ، وسبب ذلك ما قالته لي هيلين ، ولكني حين اكتشفت الرسن الذي تربط به الأفاعي ، وفَتْحَةَ التهوية وجهت نظري إلى إمكانية وجود حيوان ، لأن الدكتور مولع بجلب الحيوانات من الهند ، وكان ينبغي للمفتش أن يكتشف العضّتين اللتين تركتهما الأفعى في عنق الفتاة ؟ والدكتور روالوت المجرم خبير بالسموم ، وهو يعرف أن سم هذه الأفعى لا يُكتشف بالتحاليل الكيماوية أو الطبية الحالية ، ولعل جولي قد نجت من لدغ الأفعى مرات ومرات حتى ظفرتْ الأفعى بها .

قد أكون مسؤولاً عن موت الدكتور لأني هاجمت الأفعى بسوطي وأجبرتها على العودة من فتحة التهوية ، فارتمت على الدكتور ، ولكنها مسؤولية لا تشغل بالي ولا تمنع النوم من عيني .

****
******
*

إبهام المهندس



لم ينصرف هولمز إلى معالجة قضية واردة من طرفي إلاّ مرتين ، المرة الأولى كانت قضية الكولونيل (وربورتون) ، وقد وجد لغزها ببراعة فائقة ، أما القضية الثانية فهي أكثر مأساوية وتميّزاً ، إنها قضية إبهام السيد (هاترلي) الجديرة بأن تروى .

تزوجت سنة 1889 وتركت شقة بيكر ستريت ، وفتحت عيادة لي بالقرب من محطة (بادنكتون) ، وقد ذاعت شهرتي بعد أن شفيت أحد عمال السكك الحديدية الذي كان يشكو من مرض عضال ، وتوافد عليّ بعدئذٍ المرضى .

ذات صباح من أيام الصيف طرقت الخادمة علي الباب قبل الساعة السابعة وقالت : إن رجلين قادمين من المحطة ينتظران في العيادة . فسارعت إلى ارتداء ملابسي لأني أعرف – بحكم تجربتي – أن معظم مرضاي من عمال السكك

الحديدية يتعرضون إلى حوادث عمل تقتضي مني المبادرة إلى إسعافهم .

وهبطت الدرج لأجدني وجهاً لوجه مع أحد عمال المحطة ، فأشار بإصبعه إلى باب قاعة الانتظار وقال :

– إنه هناك ، ولولا أني اصطحبته لهرب مني ، ولكن يجب أن أذهب إلى عملي فتدبر أمرك معه .

وانصرف قبل أن أشكره .

دخلت قاعة الانتظار فوجدت شاباً في الخامسة والعشرين ، حسن الهيئة ، أنيق الثياب ، شاحب الوجه ، جالساً في المقعد ، وقد لفّ يده اليسرى بمنديل ملطخ بالدم .

قال بصوت ضعيف :

– اعذرني لأني أزعجك في هذه الساعة المبكرة يا دكتور ، ولا أستطيع الوقوف احتراماً لك لأن قدميَّ لا تحملانني ، لقد تعرضت إلى حادث خطير ، وتفضل أحد عمال المحطة بالمجيء بي إليك ، وقد تركت على الطاولة بطاقتي .

فتناولتها وقرأت فيها :

" فيكتور هاترلي ، مهندس مياه ، 5 - 16 شارع فيكتوريا " .

فقلت له :

- لقد سافرت الليل بطوله ، إنه عمل شاق .

فضحك ضحكة عصبية ، فعلمت أنه سيصاب بالهستيريا ، فطلبت منه أن يضبط أعصابه ، لكنه استمر في الضحك ، فبللت منشفة بالماء ومسحت بها وجهه حتى هدأ .

فقال معتذراً :

- لقد تلقيت صدمة هائلة ..

- لا تهتم .. واشرب هذا الماء .

فشرب كأس الماء ثم قال :

- هل تتفضل بفحص إبهامي يا دكتور ؟ أو ما بقي من إبهامي ؟

ومدّ يده الدامية إليّ ، وكنت قد رأيت الكثير من الجروح حينما كنت طبيباً في الجيش ، ولكني حين نزعت المنديل عن

يده لم أستطع مقاومة رعشة سرت في جسدي ، فقد كان الإبهام مهروساً تماماً ، وقد قطع عظمه من جذره ، فصرخت :

– يا له من جرح فظيع ! لا بد أنك فقدت الكثير من الدم .

– نعم .. وقد أغمي علي ، وحين عدت إلى وعيي كان الجرح ما زال ينــزف ، فشددت حوله عوداً وربطته بالمنديل .

– عظيم .. لديك معلومات حول الإسعافات الأولية .

– لا .. ولكنه يتعلق بالسوائل .. وأنا مختص بالمياه .

نظفت الجرح بعناية ، فكان الرجل يعضّ شفته من حين إلى آخر ، فقلت له :

– هذا الجرح سببه آلة حادة ثقيلة .

– نعم .. ساطور لحّام .

– هل هو حادث غير مقصود .

– لا .. إن من فعل هذا فعله عامداً .. أؤكد لك !

فصرخت :

– ولكن هذا مجرم .

- بل أكثر من مجرم .

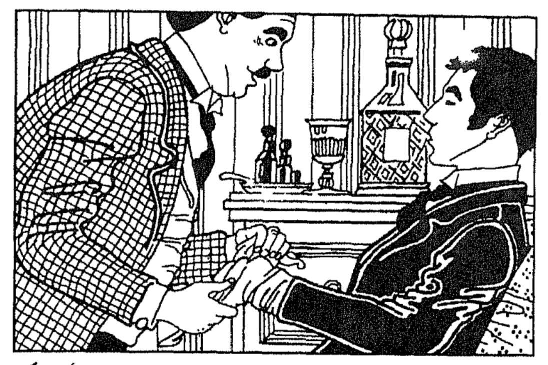
- ينبغي لك الراحة .. تمدد على هذه الديوانة .

فقال :

- أؤكد لك أني أشعر بتحسن .. ويجب أن أذهب إلى الشرطة لأقص عليهم حكايتي ، فهذا الجرح دليل على أقوالي ، وإلا لن يصدقوني أبداً ، وهي حكاية غريبة ولا دليل عليها سوى هذا الجرح ، ولا أظنهم قادرين على الإمساك بالمجرم لأن لدي معلومات ضئيلة عنه .

فقلت له :

- إذا كان في القضية لغز فما عليك سوى الذهاب إلى صديقي ، شرلوك هولمز بدلاً من الشرطة ؟



– شرلوك هولمز ؟ لقد سمعت به ، فهل تستطيع أن تكتب له كلمة توصية ؟

– بل سآخذك إليه ، وسوف نتناول إفطارنا معه .. ما رأيك ؟

– أشعر بالارتياح إذ أروي حكايتي لأحد .

وصلنا إلى بيكر ستريت ، فوجدت صديقي هولمز في منـــزله يقرأ الإعلانات في جريدة التايمز .

بعد أن تناولنا الطعام معاً ، سكّب كأساً من الشاي للشاب ووضع وسادة وراء ظهره وقال :

– أظن أن حكايتك عجيبة .. فارو لي كل تفاصيلها .. وإذا تعبت فتوقف عن الكلام ولا تشعر بالحرج .

– أشكرك .. ولا شك أن إبهامي يؤلمني .. أعني إبهامي السابق .. ولكنه ألم يحتمل .

فجلس هولمز قبالته وهو يتأمله بعين النسر . فقال الشاب :

– إني عَزَب .. وقد توفّي أبواي ، وأسكن وحدي شقة مفروشة ، وكنت أعمل في شركة للتنقيب عن المياه ، فتعلمت أشياء كثيرة . بعد وفاة والدي ورثت مبلغاً من المال فعزمت على إنشاء شركة لحسابي الخاص ، فاستأجرت محلاً تجارياً في شارع فيكتوريا ، وأنا على علم بصعوبة البداية ، ولكن بدايتي كانت صعبة حقاً ، وقد توافقني إذا علمت أني لم أربح خلال سنتين سوى سبعة وعشرين جنيهاً ، وكدت أعود إلى العمل في إحدى الشركات الكبرى ، حينما جاءني مستخدمي صباح الأمس ، فقال لي إن رجلاً يريد أن يراني من أجل العمل ، وقدم بطاقته باسم : الكولونيل (ليساند ستارك) . واستقبلت

الكولونيل فوجدته رجلاً طويل القامة ، ولكني لم أر في حياتي رجلاً أنحف منه ، وكأن عظم وجنتيه يكاد يخترق جلده ، ولم يكن مريضاً بل يمشي مشية واثقة ، وعمره حوالي الأربعين سنة ، فقال لي بلهجة ألمانية :

– لقد سمعت بك يا سيد هاترلي ، ليس كمهندس بارع فحسب بل كإنسان يكتم السر .

وفرحت لهذا الإطراء ، وسألته عمّن ذكرني بالخير ، فآثر ألا أعرفه الآن ، وأن الشخص نفسه أخبره بأني عزب وليس لي عائلة .

فقلت له :

– معلوماتك صحيحة ، ولكن ما علاقتها بالعمل الذي جئت من أجله ؟

– إن لها علاقة وثيقة ، لأن العمل الذي أطلبه منك يقتضي السرية التامة ، وأشدد على كلمة " التامة " ولأنك عزب فأنت أحفظُ للسرّ من المتزوج .

– اعلم يا سيدي أني إذا وعدتك بكتمان السر فلن يعلم به أحد .

– وهل تقسم على ذلك ؟

– أقسم لك .

– وهل تحافظ على السرية التامة ولا تشير إلى هذا العمل كتابة أو قولاً ، لا أثناءه ولا بعد الفراغ منه ؟

فقلت له :

– لقد عاهدتك فلا تخش شيئاً .

ولكنه نهض ففتح الباب وتلفت ليتأكد من خلو الغرفة المجاورة ، ثم عاد وجلس وهو يتأملني بنظرات مرتابة ، وقال :

– أخاف من الخدم الفضوليين !

وبدأت أشعر بالضيق من تصرفاته فقلت له :

– هلا تفضلت يا سيدي وذكرت لي سبب قدومك إليّ ؟

فقال بلهفة :

– هل يكفيك خمسون جنيهاً أجرة ليلة من العمل ؟

– هذه أجرة معقولة .

– ليست أجرة ليلة ، بل ساعة في " الليل " ، لدينا مكبس هيدروليكي ونريد معرفة سبب توقفه عن العمل ، عـ ـ ان تذكر لنا نوع العطل فيه ، ثم نتولى نحن تصليحه .. هل الأجرة كافية ؟

– بل أظنه أجراً باهظاً مقابل عمل بسيط كهذا .

– لا تهتم بذلك .. هل تستطيع المجيء الليلة في آخر قطار ؟

– وأين المكان ؟

– في (إيفورد) من منطقة (بركشاير) ، ستسافر في قطار الحادية عشرة ، وأنتظرك بعربتي في المحطة .

– فالمكان ليس في إيفورد نفسها ؟

– لا .. على مسافة عشرة كيلو مترات منها .

– وكيف أعود ؟ فلا يوجد قطار إلا صباح الغد ؟

– لدينا سرير تحت تصرفك .

– ولم لا يكون صباح الغد مثلاً ؟

– نريد أن تأتي ليلاً .. ولذلك دفعنا لك هذا الأجر الباهظ ، وأنت مهندس غير مشهور ، وإذا كانت القضية لا تهمك فلا مجال للحديث فيها .

وكنت طامعاً في الخمسين جنيهاً ، ولم أشأ التخلي عنها ، فسألته عن المطلوب مني بالضبط فقال :

– المطلوب منك أمر لا يخالف القانون ، وأفهم قلقك من حذري الشديد ، هل تعرف ما هي مادة (الفولون) الصلصالية ؟

– طبعاً .. وتستخدم لتنظيف الملابس أحياناً ..

– حسناً .. وهي مادة المستقبل ، وليس في إنكلترا سوى مصدرين لها .

– سمعت بذلك .

– وقد حدث أني اشتريت قطعة أرض في منطقة (ريدنك) ولحسن حظي اكتشفت فيها مصدراً لهذه المادة ، ويجهل جيراني وجودها في أراضيهم أيضاً ، ومن مصلحتي شراء الأراضي المحيطة بي ، ولكن ينقصني المال ، وقد نصحني أحد

أصدقائي الأوفياء أن أبدأ باستثمار أرضي ، وحين يجتمع لدي مبلغ كاف من المال أشتري القطعة المجاورة ، فنصبت على البئر مكبساً لتسهيل هذه العملية ، ولكنه تعطل كما ذكرت لك ، ولا بد لنا من مختص لإصلاحه ، هل الأمور واضحة الآن ؟

– ولكن ، لدي سؤال : ما فائدة المكبس المائي في استخراج الصلصال ؟ إنه يستخرج في مقالع ، كالحصى والحجارة .

– لقد ابتكرنا طريقة جديدة لاستخراجه ، لا مجال للحديث فيها الآن ، ها أنت تعرف الآن كل شيء ، فهل أعتمد عليك يا سيد هاترلي ؟

– سأكون في إيفورد الساعة الحادية عشرة والربع .

فحيّاني وانصرف .

وجلست أفكر بما رواه لي ، فوجدت حكاية الصلصال السائل لا أساس لها ، ولكني لم أتوقف عندها ، لأن المهم لدي هو الحصول على الخمسين جنيهاً ، وقد يجر مشروعٌ سواه من المشاريع .

وركبت القطار إلى إيفورد دون أن أخبر أحداً بسفري .

وحين وصلت محطتها كنت الوحيد الذي نزل فيها ، فخرجت إلى القاعة لأجد الرجل ينتظرني في ناحية منها ، وأخذ بيدي إلى العربة ، فركبناها بعد أن أسدل الستائر وضرب بيده الحاجز ، فسمعت الحصان يهرول مسرعاً .

وسأله هولمز :

– كان يجرها حصان واحد ؟

– نعم .. حصان واحد .

– وهل تتذكر نوعه ؟

– لعله من نوع (الحصان) الإسباني المهجّن .

فقال هولمز :

– آسف لمقاطعتك .. تفضل .

– ومشينا حوالي الساعة ، وكان الكولونيل ستارك ذكر أن المسافة عشرة كيلو مترات ، ولكننا قطعنا ضعف المسافة .

ولم يكلمني الكولونيل طول الرحلة ، وكانت الرحلة شاقة والطريق وعرة ، وبعد ساعة ونصف لاحظت أن العربة تسير

فوق الحصى ، ثم توقفت ، وهبط الكولونيل وتبعته ، ولكنه جذبني بسرعة داخل صيوان ثم أغلق الباب وراءنا ، فساد الظلام .

وسمعته يتمتم باحثاً عن علبة كبريت ، ثم انفتح الباب فرأيت أننا في دهليز ، وقد وقفتْ في مدخله امرأة تحمل مصباحاً بيدها ، ولاحظت أنها جميلة وترتدي ثياباً أنيقة غالية الثمن ، فاقترب منها وهمس في أذنها كلمات بلغةٍ لا أفهمها ، فكاد المصباح ينفلت من يدها ، فتناوله منها ، فانصرفت وأغلقت الباب وراءها ، وقال لي :

– هل تنتظرني لحظات هنا .. من فضلك ؟

فأدخلني حجرة صغيرة في وسطها طاولة مدورة عليها أكداس من الكتب المبعثرة ، ثم قال :

– سأعود حالاً .

وتفحصت الكتب فإذا هي باللغة الألمانية التي لا أعرفها ، ولكن تبين لي أنها علمية وبينها مجموعات شعرية ، ولم أر شيئاً من خلال النافذة لأنها مغلقة بدرفات خشبية ، ولا أسمع سوى

تكتكة ساعة حائط لا أراها ، فبدأت أحس بالخوف والوحشة ، فماذا يفعل هؤلاء الألمان في هذا المنـــزل المنعزل ؟

لقد كنت على مسافة عشرين كيلو متراً من إيفورد ، ولكن أين ؟ شمالاً أم جنوباً ؟ تستحيل معرفة ذلك ، والشيء المؤكد أننا في الريف ، ففكرت بالخمسين جنيهاً التي سأربحها ، وبدأت أتمشى في الغرفة جيئة وذهاباً لأبعث الدفء في أطرافي .

وفجأة انفتح الباب ببطء وهدوء .. وظهرت المرأة تحمل مصباحاً ، ووضعت إصبعها على شفتيها وقالت بلغة إنكليزية ثقيلة :

– لو كنت مكانك لانصرفت .. لا تتوقع الخير من بقائك .

– ولكني لن أنصرف قبل أن أنهي عملي وأرى المكبس .

– لا تتأخر .. اهرب حالاً .. فلا أحد أمام الباب .

ولمحت ابتسامتي ، لأني كنت أظنها مجنونة لشدة خوفها .

فاقتربت مني وهمست :

– اذهب بحق الله قبل فوات الأوان .

ولكني تماديت في عنادي ولم يشغلني سوى الخمسين جنيهاً التي أخشى ضياعها مني . وأرادت أن تقول لي شيئاً ، ولكنها سمعت حركة في الطابق العلوي ، فرفعت يديها يائسة وانصرفت .

بعد دقيقتين دخل الكولونيل ومعه رجل بدين قصير القامة ، له لحية قصيرة جعدة ، فقال الكولونيل ستارك :

– السيد (فرغون) شريكي وموضع ثقتي ، يجب أن نصلح المكبس بأسرع وقت .

فسألته :

– وهل هو بعيد بين الحقول ؟

– لا .. إنه هنا في القبو .

– وهل تستخرجون الصلصال من القبو ؟

– لا ، بل نضغطه على شكل قوالب ، والمهم أن نعرف سبب توقف المكبس .

ومشيت وراء الكولونيل والرجل يتبعني ، فكان المنـــزل متاهة حقيقية ، درج صاعد وآخر نازل ، وأبواب كثيرة ،

ولكن لا توجد سجاجيد ولا أثاث ، كأنه منــزل قديم مهجور .

فتردد في سمعي تحذير المرأة ، وفتح الكولونيل أخيراً حجرة صغيرة مربعة بحيث لم تتسع للسيد فرغون ، فانتظرَنا أمامها ، وقال الكولونيل :

– هذا وسط المكبس .. والسقف هو سطح المحور الذي يهبط إلى القاعدة ، وقوته عشرات الأطنان ، وفي الخارج أنابيب المياه التي تزود المكبس بالقوة وتنقلها ، وهذا ميكانيك بسيط ، لكنه فَقَدَ طاقته ولم نعرف السبب .

فتناولت المصباح وفحصت المكبس جيداً ، فوجدت قوته هائلة تتجاوز مئات الأطنان ، فدرت حوله وشغّلتُه فسمعت زفير الهواء المتسرب ، لأن أحد المحاور يتسرب منه الزيت فينقص الضغط ، بسبب تمزق الوصلة المطاطية من حوله . وشرحت للرجلين مصدر العطل ، فأصغيا إلي بانتباه ، ووصفت لهما طريقة إصلاحه .

تفحصتُ المكبس بعناية ، فتبين لي أن حكاية الصلصال مختلقة ، لأن هذه الطاقة كلها لا علاقة لها باستخراج المادة المذكورة ، ووجدت في قاع المكبس مادة معدنية ، ولكن أي نوع من المعدن يستخرجه الرجلان ؟

ورفعت رأسي لأجد الكولونيل عابس الوجه ، وصاح بي :

– ماذا تفعل ؟

– كنت أتفرج على الأرض الصلصالية ، لو كنت أدري نوع المادة التي تستخرجونها لأفدتك بنصائحي .

فضحك ضحكاً عالياً وخرج من الحجرة ، وأغلقها وراءه بالمفتاح وهو يقول :

– حسناً .. ستعرف كل شيء عن هذه الآلة .

وحاولت أن أفتح الباب ، ولكنه كان باباً حديدياً لا يمكن زعزعته .

فصرخت بأعلى صوتي :

– أخرجني يا كولونيل .. افتح الباب !

لم يستجب لي أحد ، ولكني سمعت صوتاً هائلاً ، صوت المكبس وهو يدور حول نفسه ويهبط شيئاً فشيئاً ، وتستطيع أن تتخيل فزعي ، فالمصباح على الأرض يضيء الحجرة التي يهبط سقفها بدويّ مخيف .

وكنت خبيراً بالمكابس ، وأعرف القوة العظيمة التي يضغط بها هذا المكبس ، فإذا التحم بالأرض فسوف يعجن عظامي ، وسمعت بأذني صوت عظامي تتكسر إذا هبط فوقي ، كنت أتخيل هذا ، فما العمل ؟

واشتدّ رعبي ، ورأيت موتي بأمّ عيني .

نظرت إلى القاعدة الدائرية الهابطة فوقي فوجدت ألواحاً خشبية تعترضها ، فتعلقت بها وجذبت جسمي إلى أعلى ، وما كدت أخرج إلى الهواء حتى سمعت دوياً هائلاً ، وصوت تكسر المصباح ، وامتدت إليّ يد فأمسكت بمعصمي وجذبتني إلى أعلى .

إنها المرأة تحمل شمعة مضاءة وهي تقول لاهثة :

– ه' أسرع ، سيبحثون عنك حين لا يجدونك في حجرة المكبس ، ولم أضيع الوقت في التساؤل ، وإنما جريت وراءها في الدهليز . وبعد لحظات ارتفع صوت الكولونيل يصيح غاضباً ، فدخلتُ مع المرأة إلى غرفة نومها ، وفتحت النافذة ودفعتني إليها قائلة :

– اقفز .. إنها مرتفعة ولكن فيها نجاتك .

تدليت وأنا متشبث بإفريز النافذة ، ولكني لم أقفز ، إذ دخل الكولونيل ستارك فدفعها وصرخ بها ، وعزمتُ على الصعود إلى الغرفة إذا حاول ضربها ، فصاحت به :

– فريتز .. فريتز .. تذكر ما وعدتني به . قلت إنها ستكون المرة الأخيرة !

فزجرها الكولونيل صائحاً :

– أنت مجنونة يا إليزا .. لقد رأى الكثير ، هل تسعين إلى هلاكنا ؟

ورماها عنه واندفع إلى النافذة التي تشبثتُ بها فرفع الساطور وأحسست بألم فظيع في إصبعي ، وسقطت إلى الحديقة .

لم أشعر بكسر على الرغم من ارتفاع النافذة حوالي سبعة أمتار ، وجريت بأقصى سرعة أستطيعها ، وأن أحمد الله على نجاتي . وفجأة شعرت بدوار في رأسي وثقلت قدماي ، ولاحظت أن يدي تؤلمني ألماً مريعاً والدم يتدفق من إبهامي ، فحاولت أن أسحب منديلي من جيبي ولكن دار رأسي وتدحرجتُ على الأرض ، ولا أدري كم من الوقت لبثت فاقداً الوعي ، لعله عدّة ساعات ، لأني انتبهت وإذا الفجر طالع .



كانت ملابسي ملوثة بالوحل ، وكمُّ سترتي قد تجمد الدم عليه ، ويدي ترتجف من الألم ، فنهضت فلم أجد حولي البيت ولا الحديقة ، بل وجدتُني قرب درب تحيط به شجيرات صغيرة ، وعلى مسافة بعيدة بناء منخفض ، إنه المحطة ، وقيل لي في المحطة إن أول قطار متوجه إلى لندن بعد نصف ساعة ، وسألت مدير المحطة إن كان يعرف الكولونيل ستارك ، فنفى ذلك ، فعزمت على معالجة يدي والذهاب إلى مخفر الشرطة في لندن .

وصلت إلى لندن الساعة السادسة والنصف ، فرافقني عامل المحطة إلى عيادة الدكتور واطسون ، فجاءني إليك ، هذه حكايتي .

بقينا صامتَين لسماعنا هذه الحكاية الغريبة ، وكان هولمز يفكر ، ثم توجه إلى خزانته ، وجذب منها مصنفاً يحتفظ فيه بقصاصات الجرائد وتفحصها ، ثم جذب منها ورقة وقال :

– هذا إعلان قد يهمك ، مؤرخ منذ عام ، وهو يقول :

" نبحث عن المهندس (جيرما هايلنغ) الذي خرج من منـــزله في التاسع من هذا الشهر الساعة العاشرة ولم يعد " .
لعله تاريخ العطل السابق الذي أصاب مكبس الكولونيل ستارك .

فقلت :

– هذا يفسر كلام المرأة .

فقال هولمز :

– نعم إن الكولونيل رجل حازم ، لا يسمح لأحد بالتدخل في شؤونه ، حسناً .. سنقوم بزيارتين : الأولى إلى سكوتلانديارد ، والثانية إلى إيفورد .. هيا بنا .

بعد ثلاث ساعات كنا في القطار إلى (ريدنغ) ومعنا المفتش (براستريت) في ملابس مدنية .

وبسط المفتش على المقعد خريطة للمنطقة ، وأشار إلى منطقة دائرية تمتد حول إيفورد وقال :

– هذه الدائرة محيطها عشرون كيلو متراً ، والمكان الذي نبحث عنه لا بد أن يوجد فيها .

وقال المهندس :

– مشينا حوالي الساعة .

– لعلهم حملوك إلى قرب المحطة حينما كنت غائباً عن الوعي ، وأظن المكان يقع في المنطقة الجنوبية ، لأنها أقل اكتظاظاً بالسكان .

– أظن المنطقة تقع شرقاً ، وقد أكون مخطئاً .

وتوجه براستريت إلى هولمز وسأله :

– ما هو الاتجاه الذي تظنه الأقرب إلى الصواب يا هولمز ؟

فمدّ هولمز إصبعه الطويلة النحيلة ووضعها وسط الدائرة وقال :

– هنا ، حيث نوجد الآن .

– وماذا تفعل بالعشرين كيلو متراً التي قطعتها العربة ؟

فقال هولمز :

– أظن أن الكولونيل ستارك سار به عشرة كيلو مترات ذهاباً وعشرة إياباً ، ليعود إلى المنطقة التي انطلق منها ، لأنه

ذكر لي أنه حين استقبله كان حصانه لامعاً ومستريحاً ، وليست هذه حالة حصان قطع عشرين كيلو متراً .

فقال المفتش :

– معقول .. وهذه حيلة شائعة للتضليل ، ولا ريب أنها عصابة منظمة .

ووافقه هولمز :

– إنها عصابة تعمل في تزييف النقود ، ويستخدمون المكبس لصنع الخليط المعدني .

– إننا نفتش عنهم منذ زمن طويل ، بعد أن وجدنا في التداول آلاف القطع النقدية المزيفة من فئة النصف جنيه ، ولكنهم اختفوا كأنهم الثعالب الماكرة ، وها هم قد وقعوا في الفخ هذه المرة .

وكان أول شيء رأيناه حين وصلنا إيفورد عموداً من الدخان الأسود يرتفع بين مجموعة الشجيرات ، فسأل المفتش مدير المحطة :

– ما هذا ؟ حريق ؟

– إنه يشتعل منذ الصباح ، وقد امتدت النار إلى الحديقة .

– من يملك المنـــزل ؟

– الدكتور بيكر .

وتدخل المهندس قائلاً :

– هل الدكتور طويل القامة ، معقوف الأنف ، يتكلم بلهجة ألمانية ؟

– لا .. إنه بدين ، قصير القامة ، وهو إنكليزي .. ولكنْ لديه شخص له الصفات التي ذكرها .

– وهل كانت تعيش معهما امرأة حسناء ؟

– نعم .. إنها كذلك .

واقتربنا من المنـــزل فصاح هاترلي :

– إنه المنـــزل ذاته ، وهذه الحديقة التي هربت منها ، انظروا إلى شجيرات الورد المكسورة .

وقال هولمز : لقد انتقمت منهم .. لأن المصباح البترولي الذي تركته في حجرة المكبس قد أحرق المكان ، ثم امتدت النار إلى المنـــزل كله .

ودنونا من النافذة التي ذكرها المهندس ، فوجدنا إبهامه ما يزال لاصقاً بإفريزها ، إبهاماً فقده في مغامرته الليلية ..

****

******

*

بذور البرتقال الخمس



لقد عالج هولمز كثيراً من القضايا ما بين عام 1882 و 1890 ولكن القضية التي لفتت انتباهي من بينها جميعاً قضية بذور البرتقال الخمس ، ولا أحد ينسى من سكان لندن العاصفة الشديدة التي هبت على المدينة وصحبتها أمطار قوية كادت تغرق الشوارع وتعيق حركة المرور .

وكان هولمز متعكر المزاج يتظاهر بأنه يرتب ملفاته وأوراقه وهو جالس قرب المدفأة .

أما أنا فكنت أستمتع بقراءة رواية عن المغامرات البحرية ، وأسعدني أن تكون عناصر الطبيعة الغاضبة ملائمة لأحداثها ، خاصة وأن نار المدفأة ترسل الدفء في أنحاء الغرفة .

وكانت زوجتي قد ذهبت لتقضي عدة أيام لدى عمتها ، فوجدتُني في الغرفة التي أسكنها مع هولمز قبل زواجي ، وسمعت جرس الباب يقرع ، فوضعت الكتاب على ركبتي وقلت :

– إنه جرس الباب .. لعله أحد أصدقائك ! وهذه ساعة غير مناسبة للزيارة .

– ليس لدي أصدقاء سواك يا واطسون ! وأما الفضوليون فلا أشجعهم على زيارتي .

– هل يكون أحد الزبائن ؟

– إذا كان زبوناً فلا ريب أن قضية خطيرة حتى اضطرته إلى الخروج في هذا الجو العاصف .

بعد قليل سمعنا خطوات على الدرج ، ثم طرق الباب .

وجه هولمز نور المصباح إلى الكرسي الذي سيجلس عليه الزائر ، ثم دعاه إلى الدخول ، كان شاباً في العشرين أو الثانية والعشرين ، أنيق الملابس ، حسن المظهر ، ومعطفه الواقي يقطر ماء ، وكذلك مظلته ، وجعل يطرف بعينيه وهو يتأمل ما حوله قلقاً ، فقال وهو يضع نظارته ذات الإطار الذهبي على عينيه :

– آسف للإزعاج ..

فقال هولمز :

– ناولني معطفك ، سأعلقه وسوف يجف بعد قليل ، لقد جئتَ من الجنوب الغربي لمدينة لندن كما أرى .

فقال الشاب :

– وكيف عرفت ؟

– لأن الطين الكلسي العالق بحذائك خاص بتلك المنطقة ، قرّب كرسيك من النار لأستمع إلى مشكلتك .

– إني أدعى (جون أوبنشو) يا سيدي ، ولا علاقة لي شخصياً بالحكاية التي دفعتني إليك .

لقد أنجب جدي ولدين ، عمي إلياس وأبي جوزيف ، ويملك أبي مصنعاً للدراجات في منطقة (كوفنتري) أصبح ذا أهمية بعد أن شاع استخدامها ، وهو الذي اخترع عجلة لا تثقب ، وسجّل ماركتها باسمه ، وازدهرت أعماله ازدهاراً شديداً دفعه إلى التقاعد بعد سنوات ، وقد جمع ثروة هائلة .

وأما عمي إلياس فقد هاجر إلى أمريكا وهو شاب ، واشتغل في الزراعة بولاية فلوريدا ، وأصبح ثرياً أيضاً .

وبعد الحرب الأهلية التي نشبت في الولايات المتحدة بين الشمال والجنوب عاد إلى إنكلترا حيث اشترى مزرعة في منطقة سيسكس .

وسبب هجرته أنه كان يسكن الجنوب ، ولم يحتمل رؤية الزنوج وهم يشاركون في الحياة السياسية ، فآثر العودة إلى إنكلترا على أن يرى عبيده السابقين يساوونه في المواطَنة .

وكان عمي سريع الغضب ، عنيفاً ، يحب العزلة ، ويُؤْثِرُ السكوت ، ولبث عدة سنين في منطقة (هورشام) لا يغادرها ، ولم يذهب إلى المدينة سوى مرة واحدة ، ويفضل الإقامة في مزرعته الواسعة التي تحيط بها الحقول ، حتى إنه لم يحاول رؤية أخيه ، تصور أنه لم يسأل عني حتى بلغت الحادية عشرة ، فطلب من أبي أن يسمح لي بالعيش معه ، فوافق أبي ..

كان العم إلياس لطيفاً معي ، نقضي سهرتنا في لعب (الضامة) أو الورق ، وأَوْكَلَ لي شؤون المزرعة ودفع إليَّ

مفاتيح المنـــزل والمخازن ، حتى غدوت المسؤول الوحيد عن إدارة ما يملكه وأنا في السادسة عشرة ، وكل ما يطلبه ألا يزعجه أحد .

ولكنه منعني من الدخول إلى غرفة صغيرة في الطابق العلوي من المنـــزل ، واحتفظ بمفتاحها معه . وحين كنت صغيراً دفعني الفضول إلى النظر من ثقب الباب ، فلم أجد سوى صناديق وعلب مكدسة فيها .

وذات يوم من سنة 1883 وصلته رسالة مختومة ، وعليها طابع من بلد أجنبي ، فأمسك بها قائلاً :

– رسالة من الهند ؟ ومن عساه يكتب لي من (بوند يشيري) ؟

وحين فتحها سقط منها خمس بذور برتقال ، فضحكتُ لهذه الطرفة ، ولكنّ وجه عمي شحب وظلّ جامداً وقد أصابه الخوف .

وتمتم :

– يا رب .. إن ذنوبي تلاحقني .

وسألته :

– ما معنى هذا يا عمي ؟

– إنه الموت يا ولدي .

ونهض يتمشى في الغرفة جيئةً وذهاباً ، فتناولت الظرف فلم أجد فيه رسالة ، إنما كتب عليه من الداخل حروف ثلاثة :

" ك ، ك ، ك "

بعد قليل خرج من الغرفة ثم عاد يحمل مفتاحاً لا أعرفه ، وأظنه مفتاح تلك الغرفة الصغيرة ، وبيده الأخرى صندوق صغير من النحاس وقال لي :

– ليفعلوا ما شاؤوا ، سأهزمهم ، اطلب من ماري أن تشعل المدفأة في غرفتي حالاً ، واذهب إلى الكاتب بالعدل السيد (فوردام) من (هورشام) ، واطلب منه المجيء .

بعد ساعات رجعت بصحبة السيد فوردام ، فرأيت المدفأة مملوءة برماد الأوراق المحترقة ، وعلى الطاولة الصندوق النحاسي وقد فُتح غطاؤه ، وقرأت عليه من الداخل الحروف الثلاثة " ك ، ك ، ك " ، فقال عمي :

– اجلس يا ولدي ، ستكون شاهداً على وصيتي لأني سأورث أباك كل ممتلكاتي بعد وفاتي ، وستعود إليك بعد وفاته أيضاً ، لأنك وارثه الوحيد ، حاول أن تستمتع بهذه الثروة ما استطعت ، وإذا لم تقدر على ذلك فتنازل عنها لأشد أعدائك عداوة ، فأنا لا أدري كيف تسير الأمور بعد موتي ، وقّع حيث يشير إليك السيد فوردام .

ووقعت ، فحمل الكاتب بالعدل الوثيقة وانصرف .

منذ ذلك الحين ازدادت عزلة عمي وتوفزت أعصابه ، فلم يعد يخرج إلى الحديقة إلا ومسدسه معه ، وهو يصرخ متحدياً أعداءه ، وكأنما أصابه الجنون ، ثم يدخل غرفته ويحكم إغلاقها ، ولا يغادرها إلا ليلاً .

وذات مساء أصيب بإحدى هذه النوبات ، فكانت الأخيرة ، إذ بحثنا عنه فوجدناه غريقاً في الغدير على أطراف الحديقة ، ولم يكن عمق مائه يزيد على ستين سنتيمتراً ، ولكن الشرطة أقفلت القضية واعتبرتها انتحاراً ، وأما أنا فلم أعتبرها كذلك لأني أعرف عمي جيداً ، وأعرف مقدار خوفه من

الموت . المهم أن أبي ورث ممتلكات أخيه المقدرة بأربعة عشر ألف جنيه مودعة في المصرف ، بالإضافة إلى المزرعة .

وقاطعه هولمز :

– إن حكايتك مثيرة ، ولكن متى كان تاريخ الرسالة التي وصلت إلى عمك ؟

– العاشر من آذار 1883 .

– ومتى كان انتحاره ؟

– بعد سبعة أسابيع ، ليلة الثاني من أيّار .

– حسناً .. تابع !

– بعد حيازتنا للمزرعة ، سارعنا إلى الغرفة المغلقة وفتشناها ، فلم نجد سوى ذلك الصندوق النحاسي الذي أشرت إليه ، وقد كتب على غطائه " رسائل ، مدفوعات ، إيصالات " بالإضافة إلى قصاصات من الجرائد تعود إلى فترة الحرب الأهلية الأميركية ، وهي تتحدث عن نشاط عمي أثناءها ، وتذكر الدور الذي لعبه في سياسة الجنوب .



مرت الأيام هادئة حتى كانون الثاني من سنة 188ـ إذ فتح أبي إحدى الرسائل فوجد فيها خمس بذور برتقال ، وكان قد هزئ مني حين حدثته عنها ، وقلت له إنها السبب في مصرع عمي .

ولكنها اليوم موجهة إلى أبي ، فلا سبيل إلى السخرية .

وسأل أبي :

– هل تشرح لي معنى هذا كله يا جون ؟

فقلت له :

– إنها عصابة الكوكس كلان التي أنذرت عمي ، ثم لقي مصرعه ، وهي ترسل إليك إنذاراً أيضاً .

– وماذا تريد مني ؟

وفتشت الظرف جيداً فقرأت بداخله هذه العبارة : " ضع الأوراق فوق الساعة الشمسية " .

والواضح أنهم يطلبون منا أن نضع الأوراق التي أحرقها عمي فوق الساعة الشمسية الموجودة في نهاية حديقة المزرعة .

فقلت لأبي :

– يجب الاتصال بالشرطة .

– وهل تريدني أن أكون سخرية المنطقة كلها ، إذا حدثتهم عن بذور البرتقال ؟

وبعد ثلاثة أيام سافر أبي لزيارة صديقه الضابط (فريبدي) ، وكنت مسروراً لسفره لأنه يروح عن نفسه بلقاء أحد أصدقائه القدامى ، ولكن خاب ظني ، إذ تلقيت برقية بعد يوم واحد من الضابط فريبدي تعلمني بوفاة أبي ، بعد سقوطه في مقلع لمادة الطباشير المنتشرة في تلك المنطقة ، وأسفر التحقيق عن اعتبار القضية حادثاً ، ولكننا لم نجد أثراً للعنف على جسده ، ولم تسرق محفظته . وأما أنا فقد اشتد خوفي من انتقام تلك العصابة ، واحترت في أمري ، ومع مرور الوقت تناسيتُها تماماً . لقد انقضى على وفاة أبي عامان وثمانية أشهر ، وبدأت أظن أن اللعنة قد فارقت عائلتنا بعد وفاة عمي المتورط في القضية وأبي الذي دفع ثمن أخطاء أخيه . ولكني وجدت في بريد البارحة صباحاً هذه الرسالة .

ووضع على الطاولة رسالة عليها خاتم لندن الشرقية ، وفيها خمس بذور برتقال ، وعبارة :

" ضع الأوراق فوق الشمسية " .

فسأله هولمز :

– وماذا فعلت ؟

– ذهبت إلى الشرطة فلم يصدقوا الحكاية ، لكنهم فرزوا شرطياً لحراسة المزرعة .

– وأين هو الآن ، هل يرافقك ؟

– لا ، إنه يحرس المنـــزل .

فقال هولمز :

– لِمَ لَمْ تأت إليّ مباشرة ؟

– لقد تحدثت مع الضابط (برندغست) هذا المساء ، ودلّني عليك .. إنه أحد أصدقائك كما ذكر لي .

– حسناً .. وهل لديك شيء آخر تضيفه ؟

– أي معلومة قد تفيدنا ؟

ففتح محفظته وجذب منها ورقة مصفرّة وقال :

– حينما أحرق عمي الأوراق سقطت هذه من خلف أحد المقاعد ، ولعلها تفيدك ، أظنها ورقة منتزعة من مفكرة يومية .

وضع هولمز الورقة تحت نور المصباح فوجد فيها تواريخ وأسماء أشخاص ، كأنهم أفراد تلك العصابة ، فتفحصها طويلاً ثم أعادها إلى أوبشنو ، وقال :

– لا تضيع الوقت مهما كان السبب ، وارجع إلى منـــزلك وبادر إلى العمل حالاً .

– وماذا أفعل ؟

– الشيء الوحيد الذي يتوجب عليك عمله هو أن تكتب رسالة مطولة تشرح فيها الظروف التي أدت بك إلى التعرف على هذه الرسائل ، وكيف أن عمك أحرق الأوراق كلها ، وحاول أن تكون رسالتك واضحة مقنعة ومهذبة الأسلوب . ثم أرفِقْها بهذه الصفحة من المفكرة واجعلهما في الصندوق النحاسي ، وضعه فوق الساعة الشمسية كما طلبوا منك .

– نعم .. لقد فهمت .

– ولا تحاول الانتقام من أحد في الوقت الحاضر ، لأنك ستصل إلى حقك بالطرق المشروعة ، فكر بإنقاذ حياتك أولاً ، لأن خطتهم جاهزة ، وما نزال نحن في طريقنا إلى إحباطها .

فنهض الشاب قائلاً :

– أشكر لك مساعدتك ، لقد أعدت إليّ الأمل في الحياة ، وسأعمل بنصائحك حرفياً .

فناوله هولمز معطفه وقال :

– لا تضيع الوقت .. وانتبه إلى نفسك ، فأنت في خطر شديد .. وكيف ستعود إلى منــزلك ؟

– بالقطار ؟

– حسناً .. الساعة لم تتجاوز التاسعة والشوارع غاصة بالناس .. ولكن انتبه إلى نفسك .

– معي مسدسي .

– هذا أفضل .. سنبدأ في معالجة قضيتك من فجر الغد .

– وهل ستأتي إلى هورشام ؟

– الأجدى أن أبقى هنا في لندن ففيها عقدة القضية .

– حسناً .. سأعود لرؤيتك بعد أربع وعشرين ساعة لأخبرك بما جَدَّ معي .. وإني أضع مصيري بين يديك .

وانصرف الشاب ، وجلس هولمز صامتاً مفكراً يتأمل نار المدفأة ، والعاصفة تزأر في الخارج ، ثم تكلم هولمز أخيراً وقال :

– أتدري يا واطسون ؟ إنها أغرب قضية صادفتها في حياتي .

– ماعدا قضية " كلب باسكرفيل " حتماً .

– ربما .. ولكن الشاب أوبنشو في خطر أكيد أكثر من السير هنري بطل تلك القضية .

– ولكن مَنْ أصحاب هذه الحروف (ك ، ك ، ك .) ؟ ولم يرهبون هذه العائلة المسالمة ؟

فقال هولمز :

– اعلم يا واطسون أنه ينبغي لك أن تستنبط من عنصر واحد بقية العناصر في السلسلة المنطقية ، وهذا ليس بمستغرب من الفكر الإنساني القادر على صنع الأعاجيب .

فَكّرْ في تلك القوانين الطبيعية التي شغلت الإنسانية منذ نشوئها ، وكيف استطاع العلماء النابهون إيجاد حل لها ! ولكن العقل والمنطق يحتاجان إلى معلومات إضافية لا تتوافر لدى الإنسان في الوقت الحالي ، لذلك يلجأ العقل إلى المخيلة مستعيناً بها على حل مشكلاته ، ولا أدري ما إذا كنتُ نجحتُ في مهنتي ، ولكني أجمع أكبر قدر ممكن من التفاصيل لحلّ القضايا ، وأستعين عليها بالخيال ، ولستُ غافلاً عن سَعَة علمي واطلاعي على علوم العصر .

فضحكت وأنا أمازحه قائلاً :

– أعطيك علامة الصفر في علم الفلك والفلسفة والسياسة ، وعلامة جيدة في علم النبات ، وكأنك اختصاصي ، وعلامة ممتازة في علم طبقات الأرض لأنك قادر على تحديد مصدر أي تربة في حدود ثمانين كيلو متراً حول لندن ، وأنت جيد في الكيمياء ، وجيد جداً في التشريح ، ولا مثيل لك في علوم الأدب ، وأما الموسيقا فأنت عازف كمان بارع ، وملاكم ممتاز ، واطلاعك لا بأس به على القانون

الجنائي ، وخبير في تحضير القهوة .. هذا كما أظن موجز لمعلوماتك الموسوعية .

فضحك هولمز وقال :

– لقد ذكرت شيئين ضروريين الآن ، القهوة وسوف تحضّرها الخادمة ، والموسوعة الأميركية التي ستمد يَدَكَ وتناولني المجلد من حرف (الكاف) فهو وراءك .. شكراً لك .

وأمسك هولمز بالمجلد وهو يقول :

– سننطلق من الفرضية الأولية القائلة بأن وراء مغادرة العم أمريكا دافعاً معيناً ، فلمَ يهجر فلوريدا المشرقة إلى إحدى القرى النائية في الريف الإنكليزي ؟ وما سبب ميله إلى العزلة ؟ وما سبب خوفه الدائم ؟ ومن أين وصلته هذه الرسائل ؟

فقلت له :

– الأولى من (بونديشيري) ، والثانية من (دندي) ، والثالثة من (لندن) .

– إنها من القطاع الشرقي .

– وكل هذه المدن موانئ .

– أحسنت يا واطسون .. ألا يمكن أن يكون مرسلها فوق إحدى السفن ؟ ولكن الرسالة تصل متقدمة سبعة أسابيع على ارتكاب الجريمة .. ومعنى ذلك أن مرسلها يستخدم قارباً شراعياً على حين تصل الرسائل عادة بالباخرة .

فصحت متعجباً :

– ما أروعك يا هولمز !

– ولكن أتعرف أن الخطر المحيق بالشاب (أوبنشو) أكيد ؟ لأن الرسالة مبعوثة من لندن ولا وقت لديه يضيعه .

– وما سبب هذه الاغتيالات يا هولمز ؟

– الأوراق التي يحوزها العم هامة لأحد الناس أو لجماعة منهم ، وهم على ظهر قارب شراعي ، وينصرف تفكيري إلى (جماعة) لا إلى (واحد) إذ يصعب على شخص بمفرده أن يدبر جريمتين متتاليتين بمثل هذه البراعة ، وإذن فالإشارة (ك ، ك ، ك) ، لا تمثل فرداً بل تمثل جماعة أو رابطة .

– فما معنى هذه الحروف ؟

فنظر إليَّ هولمز بصمت ثم انحنى عليّ قائلاً :

– هل سمعتَ بعصابة (كو كلوكس كلان) ؟

– أبداً ، وما هذه العصابة ؟

وبحث هولمز في الموسوعة ثم قرأ :

" هذه الكلمة مشتقة من صوت البندقية حين تلقمها الرصاص ، وهي اسم جمعية سرية أسسها بعد الحرب الأهلية مجموعة من ضباط الجنوب ، وهدفها إرهاب الزنوج وطردهم من المنطقة ، وكذلك اغتيال المؤيدين لهم من البيض ، وكانوا يُنذِرون خصومهم بإشارات غريبة يسهل التعرف إليها ، كغصن سنديان أو بذور بطيخ أو بذور برتقال ، وهم يخيّروهم بين التنصُّل من مبادئهم أو الفرار بعيداً عن متناولهم ، وكلُّ من يعترض سبيلهم يلقى مصرعه بطريقة غامضة ، وكانت خططهم من الإحكام بحيث لا يُذكر أهم فشلوا في تنفيذ جرائمهم ، أو نجا أحدٌ من تهديدهم ، وقد بذلت الحكومة الفيدرالية جهوداً جبارة للقضاء على هذه الجمعية ، حتى استطاعت استئصالها سنة 1869 ، وظهرت بعدئذٍ جمعيات مماثلة لها في أنحاء

الولايات المتحدة الأمريكية ، ولكنها لم تبلغ مبلغها من القوة والانتشار " .

ثم وضع هولمز الموسوعة جانباً وقال :

– ألا ترى تطابق التاريخ بين انهيار هذه المنظمة وبين عودة الكولونيل أوبنشو إلى إنكلترا ؟ إنها علاقة سببية في رأيي .. علاقة السبب بالنتيجة . ولئن صدق ظني فإن أعضاء الجمعية يسعون وراء الكولونيل وعائلته للحصول على وثائقها ، لأنها تدينهم جميعاً .

– وهل تظن أن الورقة المنتزعة من المفكرة ذات أهمية في هذه القضية ؟

– طبعاً ، إن فيها أسماء المنفذين للاغتيالات وتواريخها ، وعناوين المتورطين في التهديد ، ورتبهم العسكرية ، ومناصبهم السياسية . أعتقد أني أمسكت بخيط القضية ، وما على الشاب سوى تنفيذ نصائحي .. ولكن .. ناولني الكمان لأن العزف عليه يريحني من غضب الطبيعة وفساد ضمائر الناس .

* * * * * * * * * * *

من صباح الغد كان الجو أهدأ ، والريح تعصف ، ولكن الشمس ترسل أشعتها من خلال الغيوم . فنـــزلت إلى قاعة الطعام لأجد هولمز مرتدياً ثيابه يتناول فطوره .

سألت هولمز :

– ماذا ستفعل ؟

فهز رأسه قائلاً :

– قد أسافر إلى هورشام ، هذا يعتمد على التحريات الأولية التي سأقوم بها .

وتناولت الجريدة ، ونظرت إلى عناوينها ، ثم صحت فزعاً :

– فات الأوان ، يا هولمز !

– آه .. الأنذال ! لقد سبقونا .

وقرأت النبأ بصوت مرتفع :

" حادث مأساوي على جسر واترلو " .

أمس مساء ، ما بين الساعة التاسعة والعاشرة ، سمع المفتش (كوك) صرخات استغاثة ، تبعها صوت سقوط في

الماء ، وعلى الرغم من محاولة بعض المارة إغاثة الرجل ، إلا أنه اختفى بين الأمواج ، ومما صعَّب مهمة رجال الإنقاذ الذين هرعوا إلى مكان الحادث ، سوء الأحوال الجوية . والضحية شاب يدعى جون أوبنشو من سكان هورشام ، كما تثبته الأوراق الموجودة في جيبه ، وتذكر التحقيقات الأولية أن الضحية كان مسرعاً للحاق بالقطار الأخير ، ويُعتقد أن الظلمة والعاصفة أدتا إلى سقوطه في الماء ، فوق الرصيف الذي ترسو عليه قوارب النهر ، وليس على جسد الضحية أيّ آثار للعنف ، ولعل هذا الحادث يلفت أنظار المسؤولين إلى الحالة المزرية التي عليها إشارات الرصيف .



وصمت هولمز ، ثم انفجر غاضباً :

– يا لها من مصيبة يا واطسون ! لقد جاء الفتى مستنجداً بي ، فأرسلتُه إلى الموت ، على حين كنت أعزف على الكمان ، والله ليدفعنَّ هؤلاء الأوغاد ثمن جريمتهم ، فهي مسألة شخصية بيني وبينهم ، ولسوف أنتقم لك أيها الفتى .. هذا قَسَمي أمام الله !

ونهض يتجول في الغرفة كأنه نمر حبيس في قفصه ، وتمتم بعد قليل :

– كيف اجتذبوه إلى هناك ؟ فليس هذا طريق المحطة .

ثم اختطف قبعته ومعطفه وقال :

– سأذهب يا واطسون .. نلتقي مساءً .

انشغلت طول النهار ، ولم أرجع إلى بيكر ستريت إلا في السابعة ، وعاد هولمز حوالي العاشرة ، وكان مرهقاً جائعاً ، فأسرع إلى المطبخ وجلب قطعة خبز وشريحة لحم باردة وبدأ يأكلهما ، فقلت له :

– إنك جائع حقاً .

– نعم .. لم أفكر بالطعام والراحة .

– وهل وصلت إلى نتيجة ؟

– إنهم في قبضة يدي ، ولن يتأخر أخذي بثأر أوبنشو .

ثم تناول برتقالة وشطرها بالسكين ، واستخرج منها خمس بذور ، ووضعها داخل ظرف ، وكتب عليه من الداخل :

" ش ، هـ إلى ج ، ك " ، ثم ألصق الظرف ، وكتب على وجه الظرف :

" القبطان جيمس كلهون ، سافانا ، جورجيا – الولايات المتحدة الأمريكية "

وقال :

– لعله يجد الرسالة حين يصل الميناء ، وآمل أن يكون تأثيرها فيه مثل تأثيرها في ضحاياه .

– ولكن ، مَنْ القبطان كلهون ؟ وكيف اكتشفته ؟

– كلهون زعيم العصابة ، وسأبدأ به وأُكمل بأصحابه .

أمضيت النهار في تقليب وثائق الميناء ، وعرفت السفن الراسية فيه والمبحرة منه ، ولفت انتباهي سفينة أميركية تدعى " لون

ستار " ، تطابق مواعيد رسوها وإبحارها مع تواريخ الجرائم الثلاث .

– وهل عثرت على القبطان في لندن ؟

– لا .. لقد أبحرت السفينة أمس مساءً ، باتجاه الولايات المتحدة الأميركية ، واتفقت مع شرطة سكوتلنديارد على إرسال مذكرة توقيف بحقّه ، مع اثنين من مساعديه ، ولعل البرقية سبقتهم إلى منطقة السافانا ، وسيجدون الرسالة وفيها بذور البرتقال بانتظارهم .

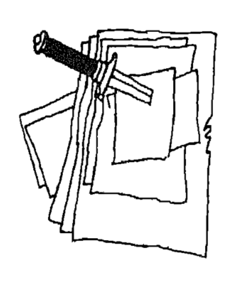
ولكن شاءت الأقدار ألا تتحقق خطة هولمز ، بل تحققت العدالة الإلهية ، إذ واجهت السفينة لون ستار عاصفة هوجاء في عُرض المحيط الأطلسي فأغرقتها ، ولم ينج أحد من ركابها بما فيهم القبطان جيمس كلهون .

****

******

*

تاج الملك شارل



على الرغم من أن شرلوك هولمز رجل شديد الذكاء متزن العقل ، منهجي في تفكيره واستنتاجه ، إلا أنه فوضوي في حياته اليومية ، فما ظَنُّكَ برجل يضع جواربه في كيس الفحم ، ويرتب سكائره في حذاء تركي ، ويثبِّت رسائله التي سيبعثها بخنجر فوق الباب ؟

ووصلت به الفوضى إلى أقصى حدها إذ يرسم على الجدار دائرة كبيرة وبداخلها دوائر أصغر منها ويصوب إليها مسدسه ويطلق الرصاص . وتجد أوراقه متناثرة في كل مكان لأنه يكره أن يتخلّص من أوراق قضية انتهى من حلها وفك ألغازها ، وقد يهديه الله فيجمع هِمَّتَه كل ستة أشهر ، ويعمد إلى ترتيب مصنفاته ووثائقه ، ولكنه ما يكاد يبدأ عمله حتى

يتناول كَمَانَهُ ويعزف عليه بين ركام الأوراق المتناثرة . وأسبوعاً بعد أسبوع امتلأت الشقة بأوراق ممنوع لمسها أو تحريكها من مكانها ، وأما إحراقها في المدفأة فهو كفر صريح في رأيه ، لأنه لم يراجعها بعد ولم يُبدِ رأيه فيها .

ذات مساء ، بعد أن انتهى من إلصاق قصاصات الصحف في أحد المصنفات ، اقترحت عليه أن يقضي ساعتين إضافيتين في ترتيب أوراقه لئلا تشبه القاعةُ حانوتاً لبائع الخردة ، والملابس المستعملة ، فنهض متكاسلاً إلى غرفته .

ثم رجع وهو يجر وراءه صندوقاً معدنياً ضخماً ووضعه وسط القاعة ، وفتحَه وجلس بجانبه على مقعد خشبي وبدأ يتأمله .

كان ثلث الصندوق مملوءاً بلفافات من الورق المربوط بخيوط أو أشرطة حمراء ، وقال لي بصوت كئيب :

– إن في الصندوق أشياء كثيرة ، ولو علمت ما فيه لطلبت مني أن أنشرها ، لا أن أرتّبَ هذه فوقها .

– وهل هي محفوظات أولى قضاياك ؟ أذكر أني طلبت منك الاطلاع عليها .

– نعم إنها أولى قضاياي ، ومصيرها النسيان مع الأسف ، لأنه لم يكن لدي كاتب لسيرتي الذاتية يدعى الدكتور واطسون .

ثم مدّ يده إلى قاع الصندوق وجذب علبة خشب صغيرة وأخرج منها قطعة ورق مجعدة ومفتاحاً صغيراً ، ووتداً من الخشب ، وبَكَرَةَ خيطان وثلاث أسطوانات صدئة وقال :

– ما رأيك ؟

– إنها مجموعة رائعة .

– نعم .. إن لها حكاية عجيبة .

– هلاّ قصصتها عليّ يا هولمز !

نثر هولمز هذه الأشياء على الطاولة وتأملها بنظرة حالمة وقال :

– هذا كل ما بقي من قضية طقوس مسغراف .

– ولكنك لم تذكرْ لي تفاصيلها ، على الرغم من تردادك هذه الكلمة مرات عديدة أمامي ، احكها لي .

فقال هولمز وقد ابتهج لأنه وجد المخرج من ترتيب أوراقه :

– سأرويها لك على شرط أن تعفيني من ترتيب الأوراق ، فهي حكاية جديرة بأن تسردها على الناس ، انظر إليّ الآن يا واطسون ، تراني إنساناً ميسوراً مشهوراً لدى أهل الاختصاص ، أكسب مالاً وفيراً من قضاياي ، ولكنك لم تعرفني في بداياتي حينما كنت أحلم بالثراء وأنام دون عشاء .

في ذلك العهد كنت أسكن غرفة في (مونتاغ ستريت) قرب المتحف ، وأنتظر زبائن لا يأتون ، ومن حين إلى آخر أعالج بعض القضايا يرسلها إليّ زملائي في الجامعة ، إذ بدأتْ منهجيتي تعرف طريقها إلى الشهرة .

وكانت ثالث قضية عالجتها في بداياتي قضية " طقوس مسغراف " ، وهي التي ثبتت أقدامي بما أحرزت فيها من نجاح .

كنت أعرف (ريجنالد مسغراف) معرفة سطحية ، إذ كنا زميلين في الكلية ، ولم نكن صديقين حقاً ، ولم يكن زملاؤه يحبونه لأنه متعجرف كئيب ، ولكنه يخفي داخل عينيه حذره الغريزي . وأما مظهره الخارجي فهو مظهر الأرستقراطي ، طويل القامة ، نحيل القد ، أنيق الملبس ، شامخ الرأس ، عيناه لامعتان كعيني الصقر ، تبدو عليه سيما الكبرياء ، وعائلته من أعرق العائلات ، ولعل قصر أهله من أقدم القصور في المقاطعة ، وحينما نتبادل الحديث كان يبدي كثيراً من الاهتمام بمنهجيتي في معالجة القضايا .

وغادرتُ الجامعة واختفى عن ناظري لمدة أربع سنوات . وذات صباح طرق باب غرفتي في مونتاغ ستريت ، وكان كعادته أنيقاً هادئاً ، وسألته وأنا أصافحه بحرارة :

– ماذا فعل بك الزمان يا مسغراف ؟

– هل بلغك نبأ موت والدي ؟ لقد توفي منذ عامين وتوليتُ إدارة شؤون المقاطعة ، وأصبحت نائباً عنها ، ولكني كنت أتابع أخبار نجاحك في تطبيق منهجيتك التي طالما أبهرتَنا .

فقلت له بتواضع :

– أحاول استخدام قواي العقلية .

– لقد جرت في مقاطعة (هيرلستون) أحداث غريبة لم يُوَفق الشرطة في تفسيرها .

وتستطيع أن تتخيل يا واطسون مبلغ اهتمامي بحكايته ، إذا نجحتُ حيث أخفقت الشرطة ، إنها الفرصة التي أنتظرها منذ زمان طويل . فسارعت إلى القول :

– أعطني تفاصيل هذه الأحداث !

فقال :

– اعلم أولاً أني ما أزال عَزَباً ، ولدي مجموعة من الخدم ، لأن قصري قديم وفيه غرف كثيرة ، وعدد هؤلاء تسع خادمات وطباخة ورئيس خدم ، وخادمان شخصيان ، وفتى يقوم بقضاء الحوائج ما عدا البستانيين وسوّاس الخيل الذين يسكنون على انفراد .

وأقدمهم رئيس الخدم (برنتون) الذي وظّفه أبي ، وكان قبل ذلك مدرساً لا عمل له ، ولكن ذكاءه ونشاطه جعلاه

لا غنى عنه ، وهو شاب قوي البنية طويل القامة ، مرفوع الجبين ، لم يتجاوز الأربعين . وقد يتساءل المرء عمّا جعله يقبل بهذه الوظيفة ، لعل الطموح ينقصه ، ولكنه شديد الفضول ، يتدخل فيما لا يعنيه ، ولم أعرف مبلغ فضوله إلا بعد حادثة الأسبوع الماضي .

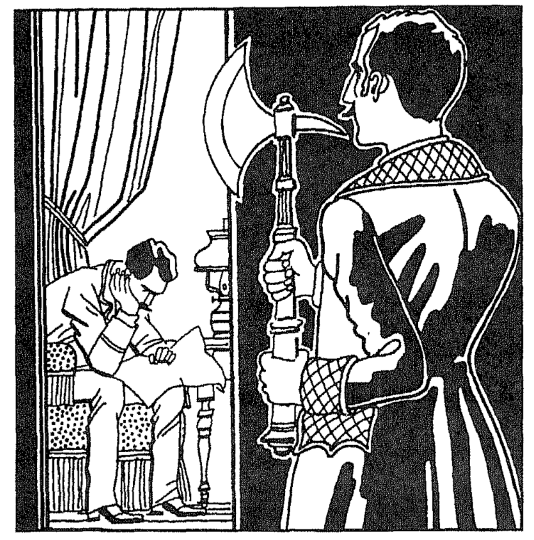
فقد تناولت كثيراً من القهوة مساءً وطار النوم من عيني ، فأشعلت النور لأقرأ رواية كنت قد بدأتها ، ولكن تذكرت أني تركتها في المكتبة ، فنـــزلت إلى الطابق الأول لآتيَ بها فرأيت النور مضاء فيها ، ودهشت لأني أغلقت المكتبة بنفسي وأطفأت النور قبل ساعتين ، وخفت أن يكون فيها لص تسلل إلى المنـــزل ، فتناولت فأساً من تلك الفؤوس الأثرية المعلقة على الجدران ، ومشيت على رؤوس أصابعي لأجد برنتون جالساً في كرسي وهو يقرأ بانتباه ورقةً مبسوطةً على ركبتيه ، وكأنه يفكر بعمق ، ثم نهض إلى مكتبي فتناول ورقة وبدأ يتفحصها بدقة .

وحين رأيته يعبث بأوراقي العائلية كما يحلو له ، سيطر علي الغضب ودخلت المكتبة ، فرفع عينيه إليّ وقد شحب وجهه ودسّ الورقة أو الخريطة التي كان يقرؤها في جيبه .

فقلت له :

– أحسنت ! هذا جزاء الأمانة التي توسّمتُها فيك ؟ أنت مطرود منذ الغد .

فانهار برنتون ، وطأطأ رأسه ولم ينطق بكلمة ، وخرج تاركاً على الطاولة الورقة التي جذبها من درج مكتبي ، ودهشت إذ رأيت أن هذه الورقة لا أهمية لها ، وما هي سوى نسخة من القواعد المتبعة لدى عائلتنا تدعى " طقوس مسغراف " أو شعائر تتألف من أسئلة وأجوبة خاصة بنا على حدٍّ علمي .



وحين يبلغ أحد أفراد عائلتنا سن الرشد تُطرح عليه هذه الأسئلة ، وأظن هذه الطقوس لا تهم سوى علماء العادات الشعبية ولا أرى فائدة فيها لغيرهم .

فقلت له :

– سنناقش هذا فيما بعد .

فأغلقت المكتبة ، ولم أكد أبتعد خطوات حتى عاد إليّ برنتون وقال :

– لا أستطيع تحمل هذه المهانة يا سيدي ، فإذا كنتَ مُصرًّا على الاستغناء عن خدماتي ، فليكن ذلك بعد شهر وكأني أقدم إليك استقالتي ، فالطرد مَذَلّة لي أمام زملائي وأصحابي الذي دخلت قبلهم في هذا القصر .

فقلت له :

– إنك لا تستأهل العطف ، وإني أمهلك أسبوعاً كرامة للخدمات التي قدمتها لعائلتي ولي في الماضي .

فقال :

– لتكن أسبوعين ، أرجوك .

– بل أسبوع ، وتدبر أمر رحيلك أمام زملائك كما تشاء .

فانصرف ذليلاً ، وصعد إلى غرفته ، وكان يؤدي خدمته في اليومين التاليين على أحسن وجه . ودفعني الفضول إلى معرفة الحجة التي سيبرر بها رحيله .

وفي اليوم الرابع لم يأت لمقابلتي بعد الفطور كي أزوده بتعليمات الخدمة ، وحين نزلت من غرفتي التقيت بالخادمة راشيل هاولز ، وكانت شاحبة الوجه منهكة القوى ، فطلبتُ منها ملازمة سريرها .

وقلت لها :

– اطلبي من برنتون أن يأتي إلي .

فقالت :

– إن رئيس الخدم قد رحل .

– رحل ؟ إلى أين رحل ؟

– رحل .. غير موجود في غرفته .. رحل . ثم انهارت على الأرض وهي تضحك ضحكات هيستيرية ، فناديت الخدمَ ونُقلتْ إلى غرفتها واستُدعي الطبيبُ . وبحثنا عن برنتون فلم نجده ، ولم يره أحد منذ مساء الأمس ، لقد اختفى على الرغم من أن الأبواب والنوافذ مقفلة ووجدنا في غرفته أشياءه كلها ، ملابسه ومحفظته وساعته ، ما عدا بدلته وخُفَّه ، حتى إن حذاءه كان في الغرفة !

وقام رجال الشرطة بتحرياتهم فلم يجدوا له أثراً في القصر أو خارجه .

وطرأ حادث جديد ، إذ ساءت حالة الخادمة راشيل هاولز وأصابتها نوبات من الحمى والهذيان والهستيريا ، ولبثت الممرضة بجانبها ليلتين ، وفي الليلة الثالثة اختفت راشيل هاولز دون أن تترك أثراً ، ولكنا وجدنا النافذة مفتوحة ، ورأينا آثار قدميها في الحديقة حتى البركة ، فغطس أحد الخدم فلم يجد جثتها ، ولكنه استخرج كيساً من القماش يحتوي على قطع من الزجاج أو الكرستال الخشن .

وما يزال البحث جارياً عن راشيل هاولز وريتشارد برنتون ، وعجزت الشرطة عن إيجاد حل لهذه القضية ، لذلك جئت إليك يا هولمز ، فأنت ملاذي الأخير .

وتستطيع يا واطسون أن تتصور دهشتي لهذه الحكاية التي لا رأس لها ولا ذنب ، وحاولت أن أقيم بعض النظام في هذه الأحداث المتنافرة : فالخادمة راشيل هاولز كانت تحب رئيس

الخدم ، ثم كرهته لأنه لم يتزوجها ، ثم ظهر عليها الجزع بعد اختفائه ، ورمت الكيس في البركة .

وسألت مسغراف :

– هل معك الورقة التي كان برنتون يتفحصها باهتمام ؟

– هذه نسخة منها ، وهي شعائر تعود إلى أزمنة سحيقة ، إنما هذه الورقة التي تراها يا واطسون ، وفيها تلك الأسئلة والأجوبة الغريبة التي يرددها كل فرد من عائلة مسغراف يبلغ سن الرشد :

– مَنْ يملكها ؟

– الذاهب .

– ولمن تعود ؟

– للعائد .

– وأي شهر ؟

– السادس بعد الأول .

– أين الشمس ؟

– فوق السنديانة .

– وأين الظل ؟

– تحت الدردار .

– كم خطوة ؟

– شمالاً ست وست ، شرقاً خمس وخمس ، جنوباً ، اثنتان واثنان ، غرباً واحدة وواحدة .. وتحت ..

– وماذا نمنح ؟

– كل ما معنا .

– ولِمَ نمنحه ؟

– من أجل الثقة .

وقال مسغراف :

– إن الورقة لا تاريخ لها ، ولكنها تعود إلى القرن السابع عشر ، وهي متوارثة بين أفراد العائلة .. ونعتبرها لعبة من الألعاب .

فقلت له :

– بل هي على غاية الأهمية .

وكان برنتون يدرك ذلك .. وقد ذكرتَ لي أنك حين فاجأته دس في جيبه خريطة .

– نعم .. ولكني لا أرى رابطة بين هذه العبارات المتناثرة ، فهل تعني لك شيئاً ؟

– قد نجد الجواب عن سؤالك إذا ركبنا القطار إلى قصرك .

وصلنا بعد الظهر إلى القصر ، وهو معروف لدى مديرية السياحة ، فقد بني سنة 1607 ، وأضيف إليه جناح في القرن الثامن عشر ، هو الذي يسكنه صديقي .

كنت واثقاً أن حلّ هذه الألغاز كامنٌ في الطقوس العائلية لمسغراف ، فإذا فهمتُها فهمتُ بقية الأحداث ، والسؤال الآن :

– لماذا يريد برنتون أن يعرف سر هذه الطقوس ؟ لا ريب أنه اطلع على شيء لم تدركه أجيال من عائلة مسغراف .. ولكن ما هو ؟

تشير الوثيقة إلى عدد من الأماكن التي ينبغي تعيين مواقعها ، فإذا اكتشفناها عرفنا سر اللغز ، ولديّ نقطتان أنطلق منهما : شجرة السنديان وشجرة الدردار ، أما شجرة السنديان فلا مجال للتردد في التعرف إليها ، لأنها كانت منتصبة أمام الواجهة عن يسار المدخل ، وهي أعظم سنديانة رأيتها في حياتي ، إذ أن محيط جذعها يتجاوز الثمانية أمتار .

وسألت مسغراف :

– ألا توجد شجرة دردار ؟

– كانت موجودة قبل أن تحرقها الصاعقة منذ عشر سنوات .. فاضطررنا إلى قطعها .

– ولا توجد شجرة دردار سواها ؟

– لا .. لا توجد .

– فهل تتذكر موقعها ؟ أريد أن أراه .

فركبنا العربة إلى مسافة قريبة من المرج المحيط بالقصر ، فوجدت حفرة جرداء لا ينبت فيها العشب .. إنها البداية يا واطسون .

وسألته :

– كم كان ارتفاعها ؟

– تسعة عشر متراً .

ولمح دهشتي فقال :

– حين كنت صغيراً ، كان أستاذ الرياضيات يطلب مني حساب الارتفاعات المحيطة بي ، فلم أترك ارتفاعاً في القصر إلا حسبته ، من الأبراج إلى الأشجار إلى الأبنية .

– وهل طرح عليك برنتون هذا السؤال نفسه ؟

فتوسعت عينا مسغراف وهو يقول :

– نعم .. منذ شهور ، أثناء حديث عادي مع البستاني عن الحديقة وأشجارها ، وقد سألني عن ارتفاع شجرة الدردار العتيقة .

وشعرت بالسعادة لأن تحرياتي تتقدم في الطريق الصحيح ، ونظرت بعطف إلى شجرة السنديان العتيقة .

انخفضت الشمس بعد أقل من ساعة ، فمرت أشعتها فوق أغصان الشجرة .. لقد تحقق أحد شروط اللغز :

أن تم الشمس فوق أغصان شجرة السنديان .

وأما عن ظل شجرة الدردار ، فالمسألة معقدة تتطلب إعمال الفكر والخيال ، لأنه يجب قياس ظلّ شجرة مقطوعة .

وسألتُ هولمز :

– وكيف حسبت ظل شجرة لا وجود لها ؟

– لقد ثبّتُّ مكان الشجرة المقطوعة عصا طولها متران ، وحسبت ظلها ، فكان مترين وسبعين سنتيمتراً ، وإذا عرفنا أن طول الشجرة المقطوعة تسعة عشر متراً ، فيكون ظلها خمسة وعشرين متراً وسبعين سنتيمتراً .. هذا واضح ، ووجدت في نهاية هذه المسافة وتداً صغيراً مثبتاً في الأرض ، إنه من عمل برنتون .. لقد كنت على آثاره ، فأمسكت بيدي البوصلة ، واتجهت شمالاً ست عشرة خطوة ، ثم اتجهت شرقاً عشر خطوات ، واتجهت جنوباً أربع خطوات ، وغرباً خطوة واحدة ، ووقفت أمام المبنى الأثري القديم حائراً ، ولم أشعر بمثل خيبة الأمل هذه طول حياتي .

فالأرضية مرصوفة بالحجارة الضخمة التي لم تتحرك من مكانها منذ أجيال ، والجدار قائم أمامي ليس فيه شرخ ، أو نافذة .

وحينئذٍ تقدم إليّ مسغراف قائلاً :

– نسيت عبارة (تحت) ..

وفهمت أن علينا أن نحفر ، ثم انتبهت إلى معناها فسألته :

– هل يوجد قبو ؟

– نعم قبو قديم قدم القصر نفسه ..

– لننـــزل بسرعة !

وهبطنا درجاً حجرياً ضيقاً ، فأضاء مسغراف مصباحاً كان فوق برميل قديم ، ووجدنا أن شخصاً ما قد سبقنا إلى دخول القبو .

يستخدم القبو عادة لتخزين الحطب الذي رُتّب حول الجدران بحيث يترك فسحة في الوسط ، ورأينا بلاطة ضخمة قد التصقت بها حلقة حديدية ، وربط بها منديل بمربعات ، مما يستخدمه أهل الريف .

وهتف مسغراف :

– آه .. إنه منديل برنتون .. ولكن ماذا يفعل هذا الخبيث هنا ؟

وسارعنا إلى استدعاء شرطيين من القرية ، وبحضورهما حاولت رفع البلاطة بجذب المنديل ، فتزحزحتْ قليلاً ، واستعنت بالشرطيين حتى نحيناها جانباً ، فرأينا تحتها حفرة واسعة مظلمة ، وجثا مسغراف على ركبتيه ، وأنزل المصباح فيها : كان عمق الحفرة مترين ، وعرضها متراً واحداً ، وفي قعرها صندوق خشبي تحيط به أحزمة حديدية ، وغطاؤه مكشوف ، وهذا المفتاح الذي تراه داخل القفل ، وقد تراكم عليه الغبار وأكلته الرطوبة ، وفي داخله هذه الأسطوانات المعدنية الصغيرة ، ولعلها نقود معدنية ، ولم نعرف أنها نقود إلا بعد ذلك ، ورأينا رجلاً جاثياً في ملابس سوداء ، يحتضن الصندوق ورأسه منحن عليه ، وعيناه مفتوحتان على سعتهما ، ولا مجال للشك : إنه برنتون ، وكان قد مات منذ أيام ، ولم نجد في جسمه أثر جرح ، ولم ندر كيف مات .

ونُقلت الجثة من القبو ، وبقيت المشكلة العويصة قائمة ، عم كان يبحث برنتون ؟

وأقول لك يا واطسون إني شعرت بالحزن ، إذ كنت أحسبني إذا اكتشفت مخبأ برنتون حللت اللغز دفعة واحدة ، لقد وجدت مكانه بسرعة ، ولكن اللغز ما يزال قائماً : ماذا كانت أجيال من عائلة مسغراف تخفي هنا منذ قرون ؟

وأنت تعلم كيف أتصرف في مثل هذه الحالة ، فقد حاولت أن أضع نفسي مكان الشخص ذاته ، لقد اكتشف برنتون المخبأ ، ولا قدرة له على رفع البلاطة وحده ، فهل استعان بشخص آخر ؟ ولا بد أن يكون هذا الشخص غير دخيل على القصر ، وإلا افتضح أمره ، فمن يكون ؟ هل يكون أحداً سوى الفتاة التي أحبته ، وله عندها مكانة رفيعة ؟ إنها راشيل هاولز .. الأمور حتى الآن منطقية واضحة ، ولكن هل يستطيع رجل وامرأة رفع بلاطة لم يقدر عليها ثلاثة رجال إلا بعد عناء ؟

ماذا كنت أفعل في مكانه ؟ كنت أزحزحها شيئاً فشيئاً ، وأجعل تحتها قطعة من الحطب . وفتشت فيما حولي فوجدت عدداً من قطع الحطب وقد حُزَّت جوانبها ، ورأيت خشبة طولها حوالي المتر قد استخدمت رافعةً ، وتركت البلاطة في طرفها أثراً واضحاً .

وتخيلت بقية ما حدث ، لقد هبط برنتون إلى الحفرة ، وأعطى لشريكته محتويات الصندوق ، لأننا وجدنا الصندوق فارغاً ، ثم انطبقت عليه البلاطة .. هل كان هذا حدثاً طارئاً غير مقصود ، أم مؤامرة مدبرة ؟ هل انزلقت الرافعة من يد الفتاة ، وأطبقت عليه البلاطة ، ولم تستطع زحزحتها ؟ فهربت خائفة والرجل في الحفرة يصرخ مستغيثاً وهو يرى الموت يطبق عليه في الظلام ، وقد اضطرت الفتاة إلى كتمان القضية ، وهذا هو سبب شحوب وجه راشيل هاولز من صباح الغد ، وإصابتها بالنوبات الهستيرية .

وساءلتُ نفسي : ماذا كان يوجد في الصندوق ؟ فانصرف تفكيري إلى الأشياء التي انتُشلت من البركة ، فقد رمتها الفتاة فيها لتبعد عن نفسها الشبهات .

كنت غارقاً في تأملاتي حينما قال لي مسغراف ، وهو يحرك المصباح في جوانب الحفرة :

– هذه نقود من عهد الملك شارل الأول ، وقد كنا على صواب حين أرجعنا زمن الطقوس إلى أواسط القرن السابع عشر .

وأضاءت لي هذه العبارة ما كان خافياً ، فقلت له :

– أعتقد أننا سنجد شيئاً آخر عن الملك شارل ، فهل يمكنني رؤية الأشياء التي انتشلت من البركة ؟

وعدنا إلى مكتبه فوجدناها على الطاولة ، إنها قطعة معدنية يعلوها السواد ، وبضع قطع من الكرستال المصقول .

وسألت مسغراف :

– هل تذكر تاريخ شارل الأول ؟ لقد قُتل الملك على حين كان أنصاره يواصلون زحفهم في إنكلترا ، ولعلهم حين أيقنوا بهزيمتهم أخفوا ما كان عزيزاً لديهم .

– نعم .. إن أحد أجدادي السير رالف مسغراف قد صحب الملك شارل الثاني في كل أسفاره ، وظلّ وفياً له في منفاه .

– إذن .. هذه هي الحلقة المفقودة من السلسلة ، وإني أهنئك لحيازتك ممتلكات تاريخية .. وإن كان هذا عن طريق المصادفة .

– وما هي ؟

– إنها بكل بساطة ، تاج ملك إنكلترا .

– التاج ؟

– نعم .. وتذكّرْ ما قالته المحاورة : " من يملكها ؟ الذاهب ، ولمن تعود ؟ للعائد " ، فالذاهب هو شارل الأول ، ومن تُنتظر عودته هو شارل الثاني ، ولا ريب أن هذه الأشياء هي التاج البريطاني القديم .

جلسنا نتبادل الآراء عن الأحداث الجارية ، فسألني مسغراف :

– كيف لم تسترجع عائلة (ستورات) التاج بعد اعتلائها العرش ؟

– لا تفسير لذلك سوى أن آخر شخص في عائلة مسغراف قد حافظ على السر منتظراً عودة الملك ، وورث أحفاده هذه المحاورة الطقوسية .

هذه حكاية التاج البريطاني القديم .

وسألت هولمز :

– وماذا حصل لهذا التاج ؟

– احتفظ به مسغراف بعد أن دفع إلى الدولة مبلغاً طائلاً من المال .. واحتفظت أنا بمفتاح الصندوق .

– والفتاة ؟

– راشيل هاولز ؟ اختفت تماماً .. ولم نسمع عنها شيئاً .

****

******

*

الفهرس

شرلوك هولمز

كونان دويل

قضايا بوليسية ، يعالجها شرلوك هولمز المعروف بذكائه ودهائه واستنتاجه المنطقي. هل تخلص ذو الشفة المقلوبة من جثة سنكلير؟ وما سرّ الشريط المرقط المخيف؟ ومن قطع إبهام المهندس؟ ست قصص ممتعة لم تفقد سحرها وتشويقها منذ ابتكر كونان دويل شخصية هذا المحقق الجنائي إلى اليوم.



تصميم الغلاف : هيثم فرحان

دار ربيع للنشر
RABIE PUBLISHING HOUSE